كلمة العدد

من أجل مرحلة جديدة لمجلة الإتحاف

بقلم: عبد القادر الهاني

مجلة الإتحاف مجلة ثقافية جامعة انبلج نورها في سليانة في سنة خمسة وثمانين وتسعمائة وألف استجابة لتطلعات نخبة من مثقفي الجهة كانوا قد عادوا إلى مدينتهم التي أصبحت مركز ولاية، وفي وطابهم تجارب ثقافية عاشوها في العاصمة حيث كانوا يشتغلون لممارسة حركة تنشيط ثقافي تشابه -إن لم تماثل- ما كانوا بصدد المساهمة فيه بتونس العاصمة.

هكذا نشأت الإتحاف وبتلك الروح المتوثبة نهضت برسالتها الثقافية التي يمكن الحكم لها أو عليها:

- من خلال تواصل صدورها على مدى سبعة وعشرين سنة دون انقطاع اعتبر لدى الكثير نجاحا باهرا في حدّ ذاته.

- ومن خلال أعدادها المائتين وعشرين عددا من الإتحاف وقرابة المائتي عدد من مجلة قطاف الإتحاف الموجهة للأطفال رأى فيه الكثير من المتابعين انجازا على غاية من الأهمية.

- ومن خلال ملتقياتها السنوية الأربع وعشرين التي عالجت عديد القضايا التاريخية والحضارية والفكرية والأدبية محليا وجهويا ووطنيا.

- ومن خلال تنظيم عشرات اللقاءات الشهرية والنصف شهرية تحت عناوين: نادي الأدب، لقاءات أدبية، منتدى الإتحاف للحوار والمؤانسة بإشراف نخبة من الكتاب والشعراء من أبناء الجهة: الحبيب الدريدي، العياشي طاع الله، جمال الشرادي، عبد الكريم العطياوي .

- من خلال المساهمة في تنظيم الملتقى الوطني أحمد ابن أبي الضياف الذي تنظمه وزارة الثقافة في سليانة فالإتحاف حاضنة لجميع أعماله، وناشرة لمختارات منها:

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومن خلال احتضان مقرها لعديد الهيآت والجمعيات: نادي العلوم. جمعية فرسان الشطرنج بسليانة سابقا، وهيئة تنظيم الملتقى الوطني أحمد ابن أبي الضياف للدراسات التاريخية والحضارية بسليانة.

ـ فرع اتحاد الكتاب التونسيين بسليانة.

ـ فرع جمعية تنمية اللغة العربية بسليانة.

ـ فرع الجمعية التونسية للمتقاعدين بسليانة.

ـ ومن خلال علاقتها المتينة بالعشرات من الأدباء والكتاب والمبدعين وهو ما بدا واضحا بمناسبة الاحتفال باليوبيل الفضي لمجلة الإتحاف في 27 أفريل 2010 تحت شعار: 25 سنة من الجهد الثقافي الموصول. والذي أظهر أنّ الإتحاف لها مكانة ممتازة في المشهد الثقافي التونسي جهويا ووطنيا وأنّ تواصلها مع الكتاب والأدباء وأهل الإبداع في تونس أمر ثابت وقائم على أساس التقدير المتبادل، وأنّ علاقتها بالقراء متينة وقائمة على أساس من المصداقية العالية.

ولعلّ الخلاصة الأبرز من ذالك اللقاء هو تأكيد جميع المعنيين بالشأن الثقافي من الكتاب والأدباء والقراء هو أن الإتحاف مكسب ثقافي وطني لابد من المحافظة عليه.

من أجل المحافظة على الإتحاف باعتبارها مؤسسة ثقافية جامعة، وفي سبيل مزيد تطويرها شكلا ومضمونا، وللتغلب على الصعوبات المالية التي باتت تهدد حياتها، تم إنشاء جمعية الإتحاف الثقافية ومهمتها:

- معالجة المسألة المادية متمثلة في:

1- إحضار معلوم الطباعة في منتصف كل شهر

2- السعي لدى المندوبية الجهوية للثقافة للقيام بإصلاحات لمقر الإتحاف الذي وضعته وزارة الثقافة –مشكورة- على ذمة مجلة الإتحاف.

3- القيام بملتقيات وندوات ولقاءات ثقافية أدبية وفكرية.

بهذا الإجراء نتعشم أننا توفقنا إلى ما من شأنه تأمين تواصل الإتحاف كطرف مساهم في تأثيث المشهد الثقافي التونسي انطلاقا من جهة سليانة إحدى ولايات الشمال الغربي الغني بتراثه ماضيا وبمثقفيه حاضرا ومستقبلا.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ثورة 1864:

البطل الثائر الدهماني البوجي

بقلم: منير رويس

نترجم في هذا العدد لأحد عساكر المدرسة الحربية بباردو، هو الدهماني بن محمد البوجي المساكني. نترجم له لأنه من قادة ثورة سنة 1864 الشهيرة، ولأن أخباره لا زالت مبعثرة في المصادر وتستحق التجميع والتوثيق.

مولده وتكوينه:

ولد الدهماني البوجي ببلدة مساكن من الساحل التونسي، وتربى بها، والتحق بالجندية وكان من جملة تلاميذ المدرسة الحربية بباردو. كانت رتبته العسكرية رتبة شاوش أي أنه لم يرتق في سلم الرتب العسكرية، وقد يكون ذلك لدخوله الجندية بصفة متأخرة.

عُرف في بلدته منذ شبابه بقدراته القيادية، فقد وثق به الناس ووكلوه أمورهم لدى القضاء والسلط. وتشير وثيقة نادرة عثرت عليها لدى بعض الخواص إلى اتفاق أعيان أهالي حي الجبليين بمساكن على تكليفه ومحمد بن أحمد الدهماني على القيام بما يراه صالحا شرعاً وقانونا لفائدتهم. والوثيقة مكتوبة في أواخر شهر ذي الحجة الحرام سنة 1276هـ/1859م، وفيها أسماء ما لا يقل عن الثمانين شخصا" أشهد جميعهم أنهم وكلوا المكرمين الأجلين الشريفين السيد الدهماني بن المنعم المرحوم السيد محمد البوجي المساكني والسيد محمد بن المنعم المرحوم السيد أحمد الدهماني المساكني ينوبان عنهم بالتكلم والخصام مع من رام خصامهم وفي المخاصمة والمراجعة لدى ولاة الشرع العزيز وقبول الأيمان وردها وأخذ النسخ...وضرب الآجال وإلزامها والتزامها وعلى الإقرار والإنكار وتغيير المقال والجواب عنه...فوّضوا لهما فيما ذكر أتمّ تفويض...".



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

✓ مشاركته في الثورة وتزعمها:

لقد جمع الدهماني البوحي إذا بين القدرة العسكرية والقدرة على كسب الناس وحسن قيادتهم. وتزامنت هذه القدرات مع اندلاع ثورة 1864 بقيادة علي بن غذاهم، كانت ثورة ضدّ الباي وضدّ الترفيع المشط في الضرائب. اندلعت الثورة في وسط البلاد ثم عمت منطقة الساحل. وتهيأت الظروف لأن تكون بلدة مساكن متزعمة للثائرين. وقد تحدثت الباحثة ب سلامة في كتابها عن ثورة علي بن غذاهم عن "كتلة مساكن" ومن أبرز زعمائها الدهماني البوحي الذي نترجم له. هذا ويعدّ مترجمنا ثاني شخصية مشاركة في حوادث الساحل لسنة 1864 ويلقب بـ"رئيس الخيالة"، بينما الشخصية الأولى هي شخصية أحمد بن لماشطة المشهور بولد الماشطة والذي يلقب نفسه في رسائله بـ"كبير المحلة"، والذي سيُحمّل نتائج كل الاضطرابات فيما بعد.

استجابت –إذا– مساكن وغيرها من مدن وقرى الساحل الثائرة (24 قرية من جملة 52) إلى نداء القبائل وأعلنت العصيان على الباي فرفضت دفع الضرائب المجحفة وتبرّمت من وجود النصارى على السواحل قريبا من المدن التونسية. كما ضاقت ذرعا من اعتبار أهل الساحل عماد جيش الباي الذي يشكو من ظروف قاسية في التمرين والإقامة والعتاد. وتزعمت مساكن الحركة ونسقت بينها وبين القبائل الثائرة. فهي البلدة الأكثر سكانا بالساحل تعد 10 آلاف نسمة في حين لا تعد سوسة سوى 8 آلاف نسمة. وهي ثالث مدينة بالبلاد التونسية فتعد تونس 80 ألف نسمة وصفاقس 35 ألف. كما أن أهاليها عرفوا بالحركية والنشاط إذ أن عددا كبير منهم بالعسكر وعدد آخرون كانوا يتنقلون للتجارة مع الجزائر وعدد أخر كانوا يتاجرون بالزيت مع الخارج ولهم علاقات بالأوروبيين. وكل هذا أكسبهم دراية في فهم الأمور وقدرة على ربط العلاقات مع الناس.

✓ إشرافه على تعزيز صف الثوار بعقد تحالفات مع القبائل:

تدعم صف القرى الثائرة بالتحالف مع القبائل المتعايشة قريبا من المنطقة. وفي 9 ماي 1864 وصل بلدة مساكن خمسمائة فارس أغلبهم من جلاص واقتبلوا اقتبال الأصدقاء واجتمع عرب القبائل وسكان القرى في مجلس واحد. ويقال إنه تم نصب قواطين (جمع قيطون أي خيمة) ظاهر مساكن وتناول الحاضرون خبز طابونة سخن وزيت وتعاهدوا على الوفاء والتعاون. وهذه العادة عادة عربية قديمة وجدناها في حزب الفضول الذي حضره الرسول صلى الله عليه وسلم قبل بعثته حيث غمس الحاضرون أيديهم في الطعام وتعاهدوا على الوفاء لبعضهم البعض.

لقد أشرف الدهماني البوحي على اللقاء الذي انتقد فيه الحاضرون سياسة الحكومة المتعلقة بالضرائب ونظام الجندية وأعلنوا إلغاء كل ضريبة وتعاهدوا على التعاون. وأبرمت في اللقاء اتفاقيات مكتوبة بهذا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المعنى بين القبائل وأهالي مساكن وأهالي قرى أخرى من المنطقة.

✓ **استمالته للجنود الفارين من عسكر الباي:**

تزامن التحالف مع القبائل مع فرار الجنود من عسكر الباي خاصة منهم الجنود أصيلي الساحل. وتقارب الدهماني البوجي مع الفارين من الجندية وضمهم إلى صفوفه. وعمل الباي على إرجاع الفارين من الجندية ووعدهم بإعطائهم المنح والأموال ليرجعوا إلى نشاطهم. ولم يفلح مبعوث الباي الجنرال حسين رئيس بلدية الحاضرة في إقناع الفارين من الجندية إلى العودة إلى نشاطهم مع الباي وباءت زيارته للمنطقة بالفشل. لقد كان الرد على مساعي الجنرال حسين من طرف العساكر بما يلي: " إنّ الباي بعد أن أذاقنا ألم الجوع والفاقة طيلة ثلاثين عاما، أصبح اليوم ينادينا إلى الجندية لأنه في حاجة إلينا ويعدنا بأجر وافر، ولكنّنا نعرف إنه عندما ينال هو ووزيره مبتغاهما سيعاملاننا معاملة الكلاب، ويعطياننا الزيت الدردي والشعير المتن".

✓ **إعلانه باسم الثائرين رفض سلطات الباي ومحاصرته مركز الحكم الجهوي: مدينة سوسة:**

عبّر الثوار بقيادة الدهماني البوجي عن عدم اعترافهم بسلطة محمد الصادق باي واعتبروا أنّ مولاهم الحقيقي هو السلطان العثماني.

وزاد تحرك ما سمي بـ"كتلة مساكن" فضغطت على سوسة حتى ترفض سلطة الباي مثلهم وتمنع تدخل الأجانب فيها. لكن أهالي سوسة امتنعوا من التعامل مع كتلة مساكن خوفا من البدو المشاركين فيها. وتأزمت الأوضاع بين الطرفين وأغلقت سوسة أبوابها وتزايد إصرار "كتلة مساكن" على دخولها وتزعمت حركة حصار المدينة في آخر جويلية 1864 ومعها أربع وعشرون قرية من الساحل.

واقتنعت القوات الأجنبية الموجودة على بوارج قبالة الساحل التونسي بضرورة التفاوض مع الثوار لإحلال السلم بالمنطقة ولتأمين وجودها وللتزود بما تحتاج إليه من غذاء. واتجهت في سياسة التفاوض إلى الدهماني البوجي زعيم الثائرين آنذاك.

انعقدت يوم 31 جويلية ويوم 1 أوت ندوة تفاوضية جمعت بين جميع مشائخ جميع قرى سوسة وعلى رأسهم الدهماني البوجي وبين الأعوان الأنقليز شامبرلان وستيفانس وليفي وقائد البارجة الأنقليزية. وعرض عليهم الأوروبيون القيام بالوساطة الصلحية بينهم وبين الباي. وقدم الدهماني البوجي مطالب الثورة وتتمثل في ضرورة مغادرة أركان الحرب (التابعة للباي) مدينة سوسة، وارتحالها إلى العاصمة، كما تتمثل في المطالبة بتعويض الصادق باي بعلي باي على عرش البلاد.

وردّ الأعوان الأنقليز بأنهم مستعدون لمساندة كل العروض المعقولة لإعادة السلم لكن ليس بإمكانهم أن يقبلوا أن تصبح السلطة المعترف بها من طرف جلالة ملك بريطانيا العظمى محل أخذ ورد.

واكتسب الأوروبيون من المفاوضات الأمان والحصول على المؤونة اللازمة، فقد تعهد لهم الدهماني البوجي بإعطاء الموجودين في بارجة غار بلدي الإيطالية قبالة سوسة ما يلزمهم من الماء الصالح للشراب ولحم البقر.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومن هذا اللقاء نفهم مكانة الدهماني البوحي من الحركة الثائرة الموجودة.

وبعد فشل المفاوضات مع الأوروبيين اقتنع الدهماني البوحي أنهم لا يمثلون سندا له، وعزم على مواصلة حركته لافتكاك مدينة سوسة التي يسكنها ممثل الباي في الجهة والتي رفضت إلى حد ذلك ...ت الانضمام إلى جانب الثوار. لقد قرر الدهماني التضييق عليها ومحاصرتها حتى تستسلم وتنقاد إلى أوامره وأوامر الثائرين. وقام الثوار بمحاصرة مدينة سوسة ومنعوا دخول قوافل المؤن إليها، كما عمدوا إلى سد قنوات المياه المتجهة نحو المدينة للإضرار بالسكان وتقليل الماء الصالح للشراب عنهم، وكل ذلك في سبيل إجبار الأهالي على الاستسلام. ووقفت المنستير موقفا مخالفا لموقف سوسة وبمجرد أن اتصل الدهماني البوحي بأهلها حتى ناصروه ومنعوا المدد البحري نحو مدينة سوسة فاشتد بلاء سكان سوسة وهم داخل أسوارها المنيعة. وفي هذه الظروف تحركت المحلة من تونس نحو الساحل منذرة بعزمة كتلة مساكن.

✓ **استعداده لمواجهة تحرك المحلة العسكرية نحو الساحل ورفض كل جهود التهدئة:**

قرر الباي القضاء على هذه الثورة الشعبية وفي يوم الاثنين 26 ربيع الأول/29 أوت 1864 أمر بخروج المحلّة العسكرية من باردو نحو الساحل يقودها المملوك أمير الأمراء أحمد زروق الذي منحه الباي تفويضا تاما شاملا وأوصاه بعدم الجرأة على القتال إلا إذا اضطر. وصارت المحنة تتحين الفرصة للقضاء على "كتلة مساكن" بإضعاف صفها والتقليص من مناصريها. وكانت القلعة الكبرى أول من استجاب لنداء المحلة فخرجت عن الدهماني البوحي وصارت تعمل ضدّه وتنتظر قدوم محلة زروق. كما انسحبت –مؤقتا– عساكر أكودة والحمام والزاوية من المعسكر الذي ضربته الكتلة ظاهر مساكن وذلك للذود عن قراها من خطر المحلة الذي يتهدد كل قرى الساحل.

ولم تفتر عزيمة الدهماني البوحي الذي ضاعف من ضغطه على المدن والقرى حتى تستعد لمنازلة المحلة بجانبها. والتحق قسم من المثاليث وجلاص والهمامة وعساكر المكنين والبقالطة وطبلبة بمعسكر مساكن. وتكونت "لجنة ثورية" يتزعمها الدهماني البوحي ومحمد بن حفصية وأحمد المقرون بالإضافة إلى أحمد ولد الماشطة وبذلت جهدا في جمع وتنظيم الضباط المبعثرين في الاثنين وخمسين قرية من قرى الساحل، واستجاب الجنود لنداء مساكن ووطدوا العزم على منع المحلة من التقدم.

واجتهدت مساكن طيلة شهر أوت في التزود من السلاح والبارود والمدافع وتهيأت القرى وبثوا الألغام حول ديارهم.

أمام الأخطار الكبيرة التي أصبحت تمثلها تحركات الثائرين تثاقلت المحلة في تحركاتها وعمل محمد الصادق باي على تهدئة الأوضاع وامتصاص غضب مساكن بعدّة طرق. فحاول حزندار استمالة الناس دون تجريد السيوف من أغمادها. كما تدخل المرابي اليهودي بستورني الذي له على المساكنية 125ألف ريال من الديون دون جدوى.

وقدم أمير الأمراء حسن المقرون ابن مساكن ومدير الشرطة بتونس بنفسه لتهدئة الأوضاع. ودخل البلدة في 30 ربيع الثاني 25/1281 سبتمبر1864 فاستقبله

الناس بحفاوة كبيرة يتقدمهم مائتا فارس. ومزج حسن المقرون الوعد بالوعيد مما أثار الجماهير ضده وقتلت رجلا من مساكن كان يحاول حمايته حسب ما أورده ابن أبي الضياف في كتابه "**إتحاف أهل الزمان**".

وقبل إن الدهماني البوجي داخل حسن المقرون بالدخول في الثورة وجعله قائدهم مما أغضبه واعتبره تعديا عليه. ونفس الرغبة وجهها الدهماني البوجي إلى القائد العسكري برتبة ألاي أميني محمد غزال الذي استجاب وانفصل عن ركب حسن المقرون وصار إلى جانب الثوار.

من جهة أخرى عجز الشيخ أحمد عبد الوارث شيخ الطريقة المدنية بسوسة الدخول إلى مساكن إذ رفض الثائرون قبوله وتدخله في المسألة، مثلما رفضوا تدخل الشيخ محمد العنّاري إمام البلدة المشهور بالصلاح وكان الرد الوحيد: أن لا فائدة في إضجارنا بالبياصة. والبياصة كلمة عامية تعني رجل الدين المسيحي.

وتشير وثيقة بالأرشيف الوطني إلى تمسك أهل مساكن بمعارضة الباي ورفضهم لوساطة حسن المقرون ورغبتهم في ملاقاة محلة زروق. وأطلعتنا الوثيقة على أسماء بعض المركيين وهم تسعة عساكر وبراح واحد وأنباشي واحد، وتقول الوثيقة: "إن هؤلاء التسعة لكل منهم طائفة تحت نظره ومتبعون (كذا) بعضهم في عمل وإفساد الصلح الذي جعله حسن المقرون وقتل أخ الحاج محمد بن تركية وأخذوا جميع ما في بيته من حوائج وكذلك مخزنه بالسوق وصرحوا بأن جميع من يرغب في الصلح يقتلونه ضباط ومشائخ (كذا) وقام براحهم بنيّه على نصب المحلة والخروج لها والذي لم يخرج فلا يلومنّ إلا نفسه".

ويدل امتناع الثوار عن قبول الوساطة على شعورهم بالقوة والقدرة على مجابهة المحلة. وتذكر المصادر أن الدهماني البوجي كان يشرف على جيش منظم قوي قوامه خمسين ألف رجل منهم عشرين ألف من العساكر والبقية من المتطوعين، كما يملك عشرين مدفعا وكان يعاضده في القيادة القائم مقام علي بن عمر، وعدد من العسكريين الآخرين برتب مختلفة. وقد كان الدهماني البوجي يشرف بنفسه على التمرن على الرماية وعلى إطلاق المدافع استعدادا لملاقاة المحلة مما زاد في حماس المشاركين.

✓ **معاركه في شهر أكتوبر وانكساره:**

بدأت المعارك يوم 5 أكتوبر **1864** لما قرر الدهماني البوجي مهاجمة القلعة الكبرى حتى تعود إلى صفه وحتى لا تفتكها محلة أحمد زروق، ونصب معسكرا ضخما يتركب من حوالي خمسة آلاف نسمة بين سوسة والقلعة الكبرى وأمطر القلعة الكبرى بالبارود طوال اليوم. لكن صمدت البلدة مما شجع المحلة على التقدم لمساندتها، وفي يوم 7 أكتوبر دارت معركة عنيفة بين المحلة و"كتلة مساكن"، وتراجع الثوار إلى القلعة الصغرى لكنهم لم يستطيعوا التحصن بها وتسرب إليها جند المحلّة وعاث فيها فسادا بقتل الأرواح والاعتداء على النسوة والأطفال. وتراجع الثوار من جديد وخرج سكان القلعة الصغرى حفاة عراة لاجئين إلى سوسة في حالة يرثى لها تقشعر منها الجلود على حد ما ذكره ابن أبي الضياف.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لقد أمر الدهماني البوجي بالتراجع بالرغم من أن خسائره لم تكن جسيمه فقد فقد مدفعا واحدا وهلك له مائتا شخص ووقع نحو المائة والثلاثين أسيرا. وكان بالإمكان الاستعداد للقتال من جديد بجماعة تعد ما يقارب الخمسين ألف رجل. لكن معطيات جديدة أضعفت الحركة وشلّتها. فالمصادر —ومنها الشفوية- تتحدث عن سعي أحمد زروق للقضاء على قوة أهل بلد مساكن بترويج إشاعة هجوم المحلّة على حريم المساكنية في وقت لا توجد فيه حراسة بالبلدة. كما أنّه عقد اتصالات غير مباشرة بينه وبين الدهماني البوجي وعده فيها بجعله أعلى من أصحابه إن استسلم.

ويبدو أن الإشاعة التي روّجها زروق وراء رجوع الفرسان إلى بلدهم وهو ما تتناقله الأجيال. ولم يكن من اليسير إعادة تجميع الناس من جديد وإعدادهم للقتال. وأعتقد أنه من المستبعد أن يكون الدهماني البوجي قد رضي بالوعود المقدّمة إليه حتى يستسلم للمحلة لأن وقت التفاوض قصير وقدراته القتالية لا زالت قائمة.

ودخل أحمد زروق مدينة سوسة يوم 8 أكتوبر معلنا النصر بعد أن تم القضاء على حركة "كتلة مساكن". وانعكس ذلك على حركة أهل صفاقس فاستسلم ثوارها وخمدت حركة 1864 نهائيا ودخلت مرحلة التشفي التي أعلنها أحمد زروق ضدّ أهل الساحل جميعا.

✓ إعدامه وتشفي محلة زروق من أهالي الساحل:

تعقب أحمد زروق زعماء الحركة فاستسلم له زعماء مساكن يتقدمهم الدهماني البوجي كما تعقب باقي الزعماء مثل أحمد ولد الماشطة الذي اعتبر قائد الحركة بالساحل وتم إلقاء القبض عليه بسلقطة. وتمت إحالة الموقوفين على المحاكمة العسكرية السريعة.

ووجهت لزعماء الحركة تهم الفساد والعصيان والحرابة وكله تؤدي إلى الحكم بالقتل. وصدرت أحكام سريعة بالإعدام فأعدم يوم 16 أكتوبر 1864 —على الأرجح- رميا بالرصاص كل من ولد الماشطة من بنان ومحمد بن حفصية من مساكن، بينما شنق الدهماني البوجي على مدفع معلق بباب البحر حسب مذكرات أحد الضباط العسكريين الفرنسيين وهو الكومندان هانيزو (الذي وضع تاريخ إعدامه يوم 7 أكتوبر).

وإلى جانب المعدمين عُذّب الكثيرون من الموقوفين بسجون سوسة وتونس ومنهم القائم قام علي بن عمر وابنه الذين عذّبا حتى أشرفا على الهلاك.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولم يكتف زروق بتتبع الزعماء بل طالب باستقدام جميع أهل الساحل حاملين معهم سلاحهم وخيلهم. وبداية من 15 أكتوبر ازدحم أهالي اثنين وخمسين قرية بسوسة للاستسلام، وحمل زروق أعيانهم على إمضاء تصريح يؤكدون فيه خضوعهم وولاءهم للعائلة المالكة. وبدأ التعذيب بدون شفقة ولا رحمة على الأعيان والعساكر من أذنب منهم ولم يذنب واشتدت القسوة بالأساس على أهالي المنستير ومساكن. ولم يقتصر الأمر على الضرب والسجن بل تعدى ذلك إلى الخطايا المالية الكبيرة التي زادت من فقر الأهالي وبؤسهم.

وتروي الذاكرة الشعبية أنّ أحمد زروق كان يبعث الجواسيس إلى مساكن ينظرون في حالة الأهالي وتصرفاتهم ويبني على ذلك حكما جديدا. فقيل إنهم وجدوهم في المرة الأولى يتجاذبون أطراف الحديث في الشوارع، فقال زيدوا من الضغط عليهم وافتكوا أرزاقهم فإنهم بصدد التفكير في الثورة من جديد. وفي المرة ثانية قال له الجواسيس إن الناس فرادى صامتين. فقال زيدوا من الضغط عليهم فلا زالوا يملكون المال ويفكرون في المكر بالحاكم من جديد ويتظاهرون بالصمت. وفي المرة الثالثة قال الجواسيس إن أهل مساكن مستبشرون يلعبون لعبة الخربقة ولا يتنافسون إلا من أجلها. فقال زروق اتركوهم الآن فلا خوف منهم لقد فقدوا كل شيء واستوت الأمور لديهم وصار اللعب هو أساس حياتهم. لكننا نقول هنا إن أهل مساكن آنذاك يُطبّق عليهم المثل الشعبي القائل: "كثير الهم يضحك".

خاتمة: هكذا يبدو الدهماني البوجي علما بارزا لا في تاريخ ثورة 1864 فقد وقف ضدّ جور البايات وظلمهم وأراد من السلطان العثماني التدخل لمنع ذلك. كما أنه لم يرضخ للأوروبيين الذين فاوضوه وأرادوا إيقاف نشاطه الثوري لأنهم كانوا يبيتون السيطرة على البلاد التونسية واستعمارها. وأثبت مترجمنا من خلال ما قام به حزمه وقدرته على جمع الناس وتنظيمهم. وإن هزيمته لا تنقص شيئا من مكانته لأن عوامل كثيرة متشابكة تفسر انكساره.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المصادر والمراجع: أحمد ابن أبي الضياف، **إتحاف أهل الزمان**. بوثائق الأرشيف الوطني بتونس، وكتاب ب. سلامة، **ثورة بن غذاهم**. تونس 1967، ومقال منصف الشايب، التحب والحرب. 83-113 وقد ذكر فيها عددا كبيرا من الكتب والمقالات التي درست ثورة 1864 كما أحال إلى كم كبير من الوثائق الموجودة بالأرشيف الوطني وأحال إلى أرقام تسجيلها وإلى تلف مما جاء فيها. ومذكرات الكومندان هانيزو **بالكراسات التونسية** رقم137 و138 لسنة 1986. و م. بوذينة، **مشاهير التونسيين**. 219، وغير ذلك من المراجع الكثيرة.

وجوه إعجاز القرآن الكريم

(2)

بقلم: د. صالح داسي

5- التأليف في الإعجاز:

نشأت الدّراسات في الإعجاز في القرن الرابع الهجري، يقول الدكتور محمد زغلول سلام): "وأفردت كتب خاصّة مستقلّة تبحث الإعجاز من ناحيته البيانية والبلاغية. وقد تمّ في القرن الرابع انفصال علوم إعجاز القرآن عن التفسير وقام عليها علماء أجلاّء وضعت القواعد والأصول لتوضح الجوانب البلاغية في أسلوب القرآن" (37) فقد كان علم التفسير مشتملا على كل العلوم ثم بدأت العلوم تستقل عنه منذ بداية القرن الثالث الهجري، وانتهاء بالقرن الرابع حيث "نهضت عقول كبيرة أخذت بمحصول الدّراسات السابقة في القرن الثالث فكان القرن الرابع الهجري قرن الاختصاصيين الذين هجروا التعميم غير العلمي واهتموا بمعالجة التفاصيل ونقد النصوص" (38)، فيعتبر القرن الرابع الهجري قرن استقلال العلوم، وتقعيد القواعد وتأصيلها، فكان من جملتها التأليف في (علوم الإعجاز). فكان (الجاحظ) في مقدمة من تصدّى بالدراسة لمسألة الإعجاز إذا كان أول من تصدى لهذا الأمر، وجعله موضوعا خاصّا للنظر والدّراسة. أمّا الذين سبقوا (الجاحظ) إلى شيء من هذا فلم يكن البحث في إعجاز القرآن قائما عندهم على هذا الوجه المحدّد المقصود" (39).

(فالجاحظ) هو أوّل من ألف في الإعجاز القرآن بكتابيه: (نظم القرآن)و (حجج النبوّة) يقول (مصطفى صادق الرافعي): "فإن رأيه في الإعجاز كرأي أهل العربية، وهو أن القرآن في الدّرجة العليا من البلاغة التي لم يعهد مثلها" (40) وقال (الخياط) فيما نقله عنه (الدكتور عمر الملاحوشي) في كتابه (تطور دراسات إعجاز القرآن وأثرها في البلاغة العربية) ولا يعرف للمتكلمون أحدا منهم نصر الرسالة واحتج بالنبوة بلغ في ذلك ما بلغه (الجاحظ)، ولا يعرف كتاب في الاحتجاج لنظم القرآن وعجيب تأليفه، وأنه حجة لمحمد صلى الله عليه وسلم على نبوته، غير كتاب الجاحظ (41) مشيرا بصفة خاصة إلى كتابه (نظم القرآن) وإلى هذا أشار الإمام محمد الطاهر بن عاشور بقوله: "وأما الذي عليه جمهرة العلم والتحقيق، واقتصر عليه أيمّة الأشعرية وإمام الحرمين (الجويني) وعليه (الجاحظ) وأهل العربية كما في المواقف (للايجي) فالتعليل لعجز المتحدّين به، بأنه بلوغ القرآن في درجات البلاغة والفصاحة مبلغا

تعجز قدرة بلغاء العرب عن الإتيان بمثله" (42). على أنّ (الجاحظ) لم يسلم هو أيضا من القول بالصّرفة وإن كان قد أحفاها وأومأ إليها... قد سرد في موضع من كتاب (الحيوان) طائفة من أنواع العجز، وردّها في العلّة إلى أن الله صرف أوهام الناس عنها ورفع ذلك القصد من صدرهم" (43). فمن الذين ألّفوا في الإعجاز (الجاحظ) (ت 255). يقول (الدكتور عبد الكريم الخطيب): "لا تتعجب إذا رأيت (الجاحظ) يقول بالصّرفة في وجه الإعجاز في القرآن، (فالجاحظ) كما تعلم (معتزلي) وتعلم أن (النظام) من شيوخ المعتزلة كان أوّل من جاهر بهذا الرأي" (44). كما أنّ (الجاحظ) من دعاة الشعوبية التي دخلت الإسلام وحاولت تقويضه من الدّاخل.

* من الذين ألّفوا في الإعجاز (أبو سليمان محمد بن الخطابي) أديب لغوي محدّث سنة 388 هـ ألف رسالة سماها (بيان إعجاز القرآن) تقع في نحو أربعين صفحة من القطع الكبير، طبعت ضمن ثلاثة رسائل في الإعجاز بتحقيق الأستاذ (محمد خلف الله وزميله).

يقول الخطابي من بيان ذلك : "قد أكثر الناس الكلام في هذا الباب قديما وحديثا، وذهبوا فيه كل مذهب من القول، وما وجدناهم بعد صدروا عن رأي وذلك لتعذّر معرفة وجه الإعجاز في القرآن، ومعرفة الأمر من الوقوف على كيفيته" (45).

* القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني توفي سنة 403هـ. من الذين نظروا في إعجاز القرآن نظرا مباشرا. وهو أوّل من ألف في الإعجاز كتابا مستقلا به، مقصورا عليه، (46) جاء في قوله: "فأما دلالة القرآن فهي عن معجزة عامّة عمّت الثقلين وبقيت بقاء العصرين، ولزوم الحجة بها في أول وقت ورودها إلى يوم القيامة على حدّ واحد وإن كان قد يعلم يعجز أهل العصر الأول عن الإتيان بمثله، وجه دلالته فيغني ذلك عن نظر مجدّد في عجز أول العصر عن مثله وكذلك قد يغني عجز أهل العصر عن الإتيان بمثله عن النظر في حال أهل العصر الأول وقال في موطن آخر "إنّا لم نجد أهل التوراة ادّعوا الإعجاز لكتابهم ولا ادّعى لهم المسلمون فعلم: أن الإعجاز بما يختص به القرآن"(47).

* القاضي أبو الحسن بن عبد الجبار المعتزلي، كان رأس المعتزلة في زمانه، توفي سنة 415 هـ أفرد في كتابه (المغني) جزءا خاصا بالإعجاز فتناول مسألة النظم والفصاحة والبلاغة وذلك بقوله: "وليس فصاحة الكلام بأن يكون له نظم مخصوص... وقد يكون النظم واحدا، وقع المزية في الفصاحة... ولذلك لا يصح عندنا أن يكون اختصاص القرآن بطرقة في النظم دون الفصاحة التي هي جزالة اللّفظ، وحسن المعنى" (48).

خامسا : عبد القاهر الجرجاني (ت 441هـ) ألف كتابين هما (أسرار البلاغة) و(دلائل الإعجاز) ويعتبر الأول مقدمة للكتاب الثاني وذلك أنه في كتابه الأول

(أسرار البلاغة) كان يحاول أن يكشف وجوه الحسن في الكلام أما في كتابه (دلائل الإعجاز) فقد نحا هذا النحو أيضا، ولكنه كان ينظر بعين البيان العربي وبعين أخرى إلى الإعجاز القرآني" (49). فهو من القائلين بالنظم في القرآن.

سادسا: الزّمخشري محمود بن عمر، متوفى سنة (538هـ) من المعتزلة، إلاّ أنه كان حرّ رأي، بعيدا عن التعصّب المذهبي فكان عزوفا عن المهاترة والعناد، طالبا احترام العقل... لا يقبل من الرأي إلى ما اطمأن إليه قلبه وسكنت إليه نفسه.

ولم يؤلف (الزمخشري) مؤلف خاصا بالإعجاز وإنما قام بمحاولة في هذا الباب هدفه أن يقيم أدلة الإعجاز وشواهده من آيات القرآن الكريم، وأن يجعل القرآن كلّه مجالا للناظرين في الإعجاز ولذلك جعل تفسيره المعروف باسم (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجود التأويل) لتحقيق هذه الغاية (50).

* القاضي عياض من (476 – ت 544 هـ/1083-1149م) عالم بالمغرب وإمام علم الحديث في زمانه، تعرّض لإعجاز القرآن في كتابه (الشفا) حيث حصر فيه وجوه إعجاز القرآن في أربعة أوجه:

1- حسن تأليفه

2- التأم كلمه وفصاحته

3- وجوه إيجازه

4- بلاغته الخارقة عادة العرب (51).

* "ابن عطية عبد الحق بن أبي بكر بن عبد الملك الغرناطي توفي سنة 546هـ فعندما نظر إلى مقدّمة تفسيره (المحرّر الوجيز في تفسير القرآن العزيز) أو كما سمّاه: " د. عبد الكريم الخطيب (الجامع المحرّر) (52). نجده أشار إلى الإعجاز في القرآن حيث يقول: "اختلف الناس في إعجاز القرآن... بم هو ؟ فقال قوم: إنّ التحدي وقع بالكلام القديم الذي هو صفة الذات، وإن العرب كلفت في ذلك بما لا يطاق، وفيه وقع إعجازها. وقال قوم: بأن التحدّي وقع بما في كتاب الله من الأنباء الصّادقة والغيوب المسدودة "، ويبطل (ابن عطية) هذين الرأيين ويصرّح بفسادهما فيقول: وهذان القولان إنما يرى الإعجاز فيهما من تقوّرت الشريعة ونبوّة محمد صلّى الله عليه وسلم في نفسه، وأمّا من هو في ظلمة كفره، فإنّما يتصدّى فيما يتبين له وبين نفسه عجزه عنه، وأن البشر لا يأتي بمثله، ويتحقق مجيئه من جهة التحدّي"(53).

* مصطفى صادق الرافعي توفي سنة 1937م في كتابه (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية). يرى الرافعي أن مراد الإعجاز يرجع إلى شيئين:

1- ضعف القدرة الإنسانية في محاولة المعجزة ومزاولتها

2- استمرار هذا الضعف على تراخي الزمن وتقدّمه (54)

* فريد وجدي: لم يفرد تأليف خاصا بالإعجاز

وإنما كانت كل كتاباته تدل على معالجته لمسألة الإعجاز يقول: "حصر المتكلمون في إعجاز القرآن كل عنايتهم في بيان الإعجاز من جهة بلاغته، فكتبوا في ذلك فصولا ضافية الذيول، وبعضهم خصّها بالتأليف وإنّنا كنّا نعتقد أن القرآن قد بلغ الغاية من هذه الجهة، إلاّ أننا نرى أنها ليست هي الجهة الوحيدة لإعجازه، بل ولا هي أكثر جهات إعجازه سلطانا على النفس، فإن للبلاغة تسلطا محدودا على الشعور الإنساني لا يتعدى حدّ الإعجاب بالكلام والإقبال عليه، ثم يأخذ هذا الإعجاب والإقبال يضعف شيئا فشيئا بتكرار سماعه، حتى تستأنس به النفس، فلا يعود يحدث فيها ما كان يحدث في مبدأ توارده عليها وليس هذا شأن القرآن، فإنه قد ثبت أن تكرار تلاوته تزيده تأثيرا... فوجب على الناظر في ذلك أن يبحث عن وجه إعجازه في مجال آخر يكفي لتعليل ذلك السلطان البعيد المدى الذي كان للقرآن على قلوب الملحدين" (55). والذي نستخلصه من كل ما تقدم أن الإعجاز القرآني في مراحله الأولى اتبع:

1- المدرسة التفسيرية

2- المدرسة الإعجازية

3- المدرسة البلاغية والعلوم اللّغوية والبيانية ، ويظهر هذا في (إصلاح المنطق) (لابن السّكيت).

4- المدرسة النقدية ومن أشهر ما ألّف في منهجها: كتابي (المعاني) لابن حزم القرطاجنّي وكتاب (سراج البلغاء) (56).

يقول الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة: "لهذه المدرسة شريكة للمدرسة الثانية قائمة كما قامت به، وشريكة للمدرسة الأولى منتجة ما أنتجته، لأنها تجعل الرصيد الأدبي القديم أساسا للحكم له أو عليه، وأمّا كونها متصلة بالمدرسة الثالثة فلكونها تستعمل القوانين اللّغوية والصّرفية والبلاغيّة" (57).

فالقرآن بإعجازه حجة على العرب قبل غيرهم وقد أشار على هذا الدكتور عبد الكريم الخطيب في حوصلة كلامه عن الإعجاز والذي يراه هو أن الإعجاز إنّما هو تحدّ للعرب، وحجة عليهم وحدهم، حجة قهر وإلزام... ولهذا لم يقبل الإسلام من العرب إلا الدخول في الإسلام أو القتل، على حين قبل من غير العرب الجزية دون القتل إذا أبوا الدّخول في الإسلام... أمّا غير العرب فالحجة عليهم حجّة ضمنية، إذ أن عجز أرباب البيان عن لقاء هذا البيان السماوي يشهد للمعجزة شهادة قاطعة عند من لا يحسن العربية (58). والذي يستنتج أن القول بأن الإعجاز البياني في القرآن حجة على من لا يحسن العربية دون غيرهم، هو مردود من نواح ثلاثة:

الأولى: أن القرآن لم يأت للعرب وحدهم وإنما للناس كافة وطبيعي أن الناس كافة لم يكونوا عربا.

الثانية: أن الإعجاز القرآني يشمل وجوها أخرى من الإعجاز، كالإعجاز، العلمي مثلا.

الثالثة: أنّ اللغة العربية لما كانت لغة القرآن فالمتأكد

نشرها وتعليمها لغير العربي حتى يفهم الإعجاز البياني.

في كتاب الله فلا نقف عند ظاهر الترجمة، وإنما نعمل على تعميم اللغة العربية لتبقى خالدة بخلود القرآن، فالإعجاز البياني في القرآن إعجاز بالفصاحة وإعجاز بالبلاغة ولكن لا ينبغي الوقوف عند إدراك ذلك بل نصله بالدلالة على النبوة، يقول الإمام محمد عبده: "فيا حسرة على الغافلين الذين زعموا أن إعجازها – أي الآيات القرآنية- محصور في فصاحة المفردات والجمل وبلاغة البيان، على ما في دلالته الفصاحة والبلاغة على النبوّة من الخفاء على الأفكار والأذهان" (59). فالقرآن (معجز بما بلغه من غاية قصوى في النظم، وبما أبدعه من أفانين التصرف في نظم الكلام وبما أودع فيه من المعاني الحكمية والإشارات إلى الحقائق العقلية والعلمية مما لا تبلغ إليه عقول البشر" (60).

6- القدر المعجز من القرآن:

هل القدر المعجز القرآن كله أم عشر سور مثله، أو سورة واحدة؟. يقول الزرقاني: "تحدّاهم في سورة الطور أن يأتو بمثله وذلك في قوله تعالى :{يقولون تقوّله بل لا يؤمنون فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين} سورة الطور: 35. بل أن التحدّي في الإتيان بمثل هذا القرآن لا يختصّ بالإنسان وإنما يشمل الجنّ أيضا، قال تعالى: {قل لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا} سورة الإسراء: 88. الظهير هو المعين: أي "لو تعاون الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لما أتوا بمثله، فكيف بهم إذا حاولوا ذلك متفرقين" (61) ولما انقطعوا مدّ لهم الحبل فقال تعالى في سورة هود: {أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات} سورة هود:14. فلما عجزوا هذه المرّة أيضا طاولهم مرّة أخرى، وأرخى لهم الحبل إلى آخره، وقال تعالى في سورة البقرة: {وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبادنا فاتوا سورة من مثله وأدعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين} سورة البقرة: 24. فكان عجزهم بعد ذلك أبشع وأشنع، وسجل الله عليهم الهزيمة أبد الدهر.

وينتهي الزرقاني قائلا: "بهذا يتبين لك أن القدر المعجز من القرآن هو ما يقدّر بأقصر سورة منه، وأن القائلين بأن المعجز هو كل القرآن لا بعضه-وهم المعتزلة-والقائلين بأن المعجز كلّ ما يصدق عليه أنه قرآن ولو كان أقل من سورة كل أولئك بمنأى عن الصواب وهم محجوجون بما بين يديك من الآيات" (62).

فالقدر المعجز من القرآن لا يقل على سورة واحدة من سوره مهما قصرت.

وقد أشار إلى هذا الإمام محمد الطاهر ابن عاشور بقوله: "وإنما وقع التحدّي بسورة أي وإن كانت قصيرة دون أن يتحداهم بعدد من الآيات ، لأن من أفانين البلاغة ما مرجعه إلى مجموعة نظم الكلام وصوغه بسبب الغرض الذي سيق فيه من فواتح

الكلام وحواتمه" وقد استدل بما ذهب إليه (شرف الدين الطيبي) (63) أن التحدي كان بسورة دون أن يجعل بعدد من الآيات" (64).

"باعتبار أن السورة الواحدة جامعة لصور الإعجاز" (65). وهذا ما يؤكده النظم التوقيفي للآيات داخل السورة الواحدة باتفاق العلماء جميعهم.

من وجوه الإعجاز

I -الإعجاز البياني

تمهيد : هل القرآن معجزا للفظ أو بالمعنى أو بهما معا ؟

قال قوم: "لم يكن عجزهم عن الإتيان بمثل لفظه، وإنما كان عن الإتيان بمثل معناه.

وقيل: "لم يعجزوا عنهما، وإنما عجزوا عن نظم مثل نظمه" (66) وقال الفيروز أبادي ومذهب أهل السنة: "أنّ القرآن معجز من جميع الوجوه، نظما ومعنى ولفظا" (67).

فالقرآن مميّز عن خطب الخطباء وشعر الشعراء، بإتي عشر معنى ومجملها: إيجاز اللفظ، وتشبيه الشيء بالشيء، واستعارة المعاني البديعة، وتلاؤم الحروف، والكلمات، والفواصل، والمقاطع في الآيات، وتجانس الصيغ، والألفاظ، وتعريف القصص، والأحوال، وتضمين الحكم، والأسرار،والمبالغة في الأمر، والنهي، وحسن بيان المقاصد، والأغراض، وتمهيد المصالح،والأسباب، والأخبار عمّا كان، وعمّا سيكون (68).

وقال القاضي عياض: "أعلم وفقنا الله وإياك أن كتاب الله العزيز منطو على وجوه من الإعجاز كثيرة، وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها في أربع أوجه: أوّلها حسن تأليفه، والتئام كلمه، ووجوه إيجازه، وبلاغته الخارقة عادة العرب، وذلك انهم كانوا أرباب هذا الشأن، وفرسان الكلام، فقد خصّوا من البلاغة والحكم، ما لا يحض به غيرهم من الأمم، وأتوا من دراية اللسان مالم يؤت إنسان"(69).

أ-عند القاضي أبي بكر الباقلاني: حصر القاضي أبو بكر الباقلاني وجوه إعجاز القرآن في ثلاثة نواح:

الناحية الأولى: الإعجاز المسائل في الإخبار عن الغيوب مما لا يقدر عليه البشر، لا سبيل لهم إليه من ذلك ما وعد الله نبيه عليه السلام أنه سيظهر دينه على الأديان، قال تعالى: {هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون} سورة الصف:9.

الناحية الثانية: أنه كان معلوما من حال النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان أميّا لا يكتب ولا يحسن أن يقرأ، ثم أتى بجملة ما وقع وحدث من عظيمات الأمور ومتمّمات السير من حين خلق الله آدم عليه السلام إلى حين مبعثه فذكر في الكتاب قصّة آدم عليه السلام وابتداء خلقه وما وصل إليه أمره من الخروج من الجنّة، ثم ذكر قصّة نوح عليه السلام، وما كان بينه وبين قومه، وكذلك أمر إبراهيم عليه السلام وإلى ذكر سائر الأنبياء المذكور في القرآن وقد عدّ (القاضي

عياض) في (الشفاء) هذه الجهة من الإخبار بالغيوب (70). فوجوه الإعجاز عند القاضي في كتابه ثلاثة : 1-الإعجاز الغيبي،2-الإعجار التاريخي،3-الإعجاز بالنظم.

الناحية الثالثة: أنّ القرآن كان بديع النّظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى الحدّ الذي يعلم عجز الخلق عنه (71) وهذا التفسير يمكن أن تضاف فيه الثانية للأولى.

ب-عند مصطفى صادق الرافعي. وقد أشار مصطفى صادق الرافعي إلى التباين بين الموقفين على الإعجاز بالنظم بقوله: "بعض الفرق يقولون: أن وجه الإعجاز في القرآن هو ما اشتمل عليه من النظم الغريب المخالف لنظم العرب ونثرهم في مطالعة وفواصله، أي كأنه بدع في ترتيب الكلام لا أكثر، وبعضهم يقول: أن الإعجاز في سلامة ألفاظه مما يشين اللّفظ كالتعقيد والاستكراه، وآخرون يقولون: بل ذلك من خلوّ القرآن من التناقض واشتماله على المعاني الدقيقة، وجماعة يذهبون إلى أن الإعجاز مجتمع من بعض الوجوه التي ذكرناها كثرة أو قلة " (72). فما ذكره الرافعي يتعلق بـ"الإعجاز البياني وهو ما أشار إليه بقوله : "الإعجاز البياني يتركز على ثلاثة خصائص. 1-الفصاحة في الألفاظ 2-البلاغة في المعاني 3-جمال النظم (73).

ج-أوجه الإعجاز عند الرماني (ت 374 هـ): وقد جعل وجوه الإعجاز تظهر في سبع وجوه وهي ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة، والتحدّي للكافة، والصرفة، والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية، ونقض العادة وقياسه بكل معجزة" (74) وهذه الأوجه فيها نظر وخاصة مسألة الصرفة وأننا لا نقر بما ذهب غليه الرماني في الإعجاز بالصرفة لأننا إن قلنا بها انتفت الظواهر الاعجازية الست التي ذكرها .

د-عند عبد القهار الجرجاني: فإنه حصر وجه إعجاز القرآن في البلاغة فحسب، يقول الدكتور عبد الرحمن بدوي: "اما وجه إعجاز القرآن عند عبد القاهر فبلاغته فحسب، وتكمن هذه البلاغة في نظم القرآن على هذا الأسلوب الذي نزل به لا في ألفاظه منفردة عن هذا النظم الذي جاء به (75) وما أشار إليه (الدكتور عبد الرحمن بدوي) له علاقة بالوجه الثالث الذي ذكره (القاضي الباقلاني) في كتابه (إعجاز القرآن).

هـ-عند الإمام محمد الطاهر ابن عاشور: فإنه حصر وجه الإعجاز في ثلاثة مظاهر: حيث قال فنرى ملاك وجه الإعجاز راجعا في ثلاثة مظاهر: حيث قال فنرى ملاك وجه الإعجاز راجعا على ثلاث جهات:

الجهة الأولى: بلوغه الغاية القصوى مما يمكن أن يبلغه الكلام العربي البليغ من حصول كيفيات في نظمه مفيدة معاني دقيقة، ونكتا من أغراض الخاصة من بلغاء العرب مما لا يفيده أصل وضع اللغة.

الجهة الثانية: ما أبدعه القرآن من أفانين التصرّف في نظم الكلام مما لم يكن معهودا في أساليب

العرب، ولكنه غير خارج عمّا تسمح به اللغة.

الجهة الثالثة: ما أودع فيه من المعاني الحكمية والإشارات إلى الحقائق العقلية والعلمية مما لم تبلغ إليه عقول البشر في عصر نزول القرآن وفي عصور بعده متفاوتة .

وهذه الجهة أغفلها المتكلمون في إعجاز القرآن من علمائنا مثل أبي الباقلاني والقاضي عياض (76).

كما أشار إلى وجود جهة رابعة وهي ما انطوى عليه القرآن من الأخبار عن المغيّبات مما دلّ على أنّه منزل من علاّم الغيوب" (77).

فالإمام محمد الطاهر بن عاشور أضاف إلى الإعجاز بالبلاغة والنظم ظاهرة الإعجاز العلمي، المعتمد على الحقائق العقلية، وهو ما لم يذكره من قبله كأبي بكر الباقلاني والقاضي عياض.

و-أوجه الإعجاز عند الزرقاني: فإنه حصر الإعجاز في أربعة عشر وجها:

1-لغته وأسلوبه الذي تحدى به فأعجز أساطين الفصحاء، وأعيا مقويل البلغاء (78).

2-طريقة تأليفه، فلم ينزل جملة واحدة وإنّما نزل مفرّقا منجما، ثم مضى العمر الطويل والرسول صلى الله عليه وسلّم على هذا العهد وإذا القرآن كله بعد ذلك يكمل ويتم، ولا يؤخذ عليه شيء من التخاذل والتفاوت" (79).

3-علومه ومعارفه التي بلغت من نبالة القصد ونصاعة الحجة وحسن الأثر وعموم النفع مبلغا يستحيل على محمد صلى الله عليه وسلّم، أن يأتي به من عند نفسه، بل يستحيل على أهل الأرض جميعا من علماء وأدباء وفلاسفة ومشرعين وأخلاقيين ان يأتوا من تلقاء أنفسهم بمثلها (80).

4-وفاؤه لحاجة البشر، ومعنى ذلك أن القرآن جاء بهدايات تامة كاملة،تفي بحاجات البشر في كل عصر ومصر، مثل:

*إصلاح العقائد عن طريق إرشاد الخلق إلى حقائق المبدأ والمعاد تحت عنوان الإيمان بالله تعالى وملائكته ورسله واليوم الآخر.

*إصلاح العبادات عن طريق إرشاد الخلق إلى ما يزكي النفس ويغذي الأرواح ويقوّم الإرادة.

*إصلاح الأخلاق عن طريق إرشاد الخلق إلى فضائلهم وتنقيتهم من رذائلها في قصد واعتدال.

*إصلاح الاجتماع عن طريق إرشاد الخلق إلى توحيد صفوفهم ومحو العصبيات وإزالة الفوارق التي تباعد بينهم.

*إصلاح السياسة أو الحكم الدولي، عن طريق تقرير العدل المطلق والمساواة بين الناس.

*الإصلاح المالي عن طريق الدعوة إلى الاقتصاد وحماية المال من التلف والضياع.

*الإصلاح النسائي عن طريق حماية المرأة واحترامها وإعطائها جميع الحقوق الإنسانية والدينية والمدنية.

الإصلاح الحربي عن طريق تهذيب الحرب ووضعها على قواعد سليمة لخير الإنسانية في مبدئها وغاياتها

*محاربة الاسترقاق في المستقبل وتحرير العبيد الموجود بطرق شتى منها الترغيب العظيم في تحرير الرقيق.

*تحرير العقول والأفكار، ومنع الإكراه والاضطهاد والسيطرة الدينية (81).

يتبع ...

الهوامش :

37-د.محمد زغلول سلام: "أثر القرآن في تطور النقد العربي" ص 229

38-د. محمد زغلول سلام:"أثر القرآن في تطور النقد العربي" ص 229

39-د.عبد الكريم الخطيب: "إعجاز القرآن في دراسات السابقين" ص 153

40-مصطفى صادق الرافعي: "إعجاز القرآن" ص 164

41-عمر للاخوشي : تصوّر دراسات إعجاز القرآن" ص 225

42-الإمام محمد الطاهر ابن عاشور : "التحرير والتنوير" ج1-ك1- ص 104

43-مصطفى صادق الرافعي : "إعجاز القرآن" ص 165

44-د.عبد الكريم الخطيب : "الإعجاز في دراسات السابقين" ص 176

45-د.عبد الكريم الخطيب : "الإعجاز في دراسات السابقين"، ص 182

46-انظر إعجاز القرآن : لأبي بكر الباقلاني (هامش) الإتقان لجلال الدين السيوطي"ج1 ص9

47-المرجع السابق : ص 45

48-القاضي عبد الجبار :"المغني" -ج16-ص 199

49-عبد الكريم الخطيب: "الإعجاز القرآني في دراسات السابقين" : ص 241-242

50-د.عبد الكريم الخطيب : "إعجاز القرآن في دراسات السابقين" ص 358

51-القاضي عياض: "الشفا في التعريف بحقوق المصطفى" -ج1- 217

52-د.عبد الكريم الخطيب: "إعجاز القرآن في دراسات السابقين" ص 320

53-قام بتحقيقه الدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة

54-من محاضرات الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة بتاريخ 1976/11/11

55-د.عبد الكريم الخطيب: "اعجاز القرآن في دراسات السابقين" ص344 (انظر فريد وجدي "دائرة معارف القرن العشرين مادة قرآ المصنف الأول من مجلد 7، ص 677)

56-قام بتحقيقه الدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة

57-من محاضرات الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة بتاريخ 1976/11/11

58-د.عبد الكريم الخطيب: "إعجاز القرآن في دراسات السابقين" ص 351

59-الإمام محمد عبده : "تفسير المنار" ج12-ص 45

60-الإمام محمد الطاهر ابن عاشور: "التحرير والتنوير" -ج1-ك1- ص 104

61-محمد الطاهر ابن عاشور: "التحرير والتنوير" -ج15-ص 203

62-محمد عبد العظيم الزرقاني: "مناهل العرفان" -ج2-ص334 (انظر الدكتورة عائشة عبد الرحمان : الإعجاز البياني ورسائل ابن الأزرق)

63-سنه على الأصح الحسين، وقيل الحسن محمد الطيبي الشافعي ت 743 هـ

64-الإمام محمد الطاهر ابن عاشور: "التحرير والتنوير" ج1 ك1 ص 104

65-ابن عاشور: "ص 105-م1-ك1

66-الفيروز أبادي محمد الدين بن يعقوب : "بصائر ذوي التمييز" م1 ص 68

67-المرجع السابق: ص 68

68-المرجع السابق: ص 68

69-القاضي عياض: "الشفا" ج2-ص 473-474 (أربع مجلدات -ط مصر -1327هـ)

70-القاضي أبو بكر الباقلاني: "إعجاز القرآن (هامش الاتقان) السيوطي" ج1-ص47-51

71-ابن النهج الحورية: "القواعد المشوق إلى العلوم القرآن" ص 344

72-مصطفى صادق الرافعي : "إعجاز القرآن والبلاغة ...." ص 156-166

73-المرجع السابق : ص 166-167

74-د.حقي شرق: "منير الإسلام" ع 11 ص 21 ذو القعدة 1383 هـ -ص 73

75-د.عبد الرحمن بدوي: "عبد القاهر الجرجاني وجوده في البلاغة العربية (سلسلة أعلام العرب) ع 8 ص 79

76-الإمام محمد الطاهر ابن عاشور: "التحرير والتنوير" ج1 ك1 : ص 104

77-المرجع السابق: ص 105-ج1-ك1

78-محمد عبد العظيم الزرقاني: "مناهل العرفان" ج2 : ص 332

79-المرجع السابق: ج2 : ص 340

80-الزرقاني: مناهل العرفان ج 2 : ص 342

81-مناهل العرفان: ج2 : ص 352

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

موقف بن خلدون من الساسة

1332 م-1406م

بقلم: عبد الكريم العطياوي

يوحي لنا هذا العنوان، بأن صاحب هذه النظرية، هو العلامة عبد الرحمان بن خلدون المولود بتونس في 1332م، والمتوفى بالقاهرة في 1406م.

كان ينتمي أصلا إلى أسرة أندلسية، فقد وفدت من اشبيليّة إلى تونس في عهد أبي زكرياء الحفصي أحد خلفاء الدولة الحفصية التي حلّت محلّ الدولة الموحدية، والتي امتدّ نفوذها السياسي والاقتصادي والروحي من تونس إلى الجزيرة العربية.

تقلّدت هذه العائلة مناصب سياسية وإداريّة، اشتهرت بالعلم والأدب ممّا جعل ابنها عبد الرحمان بن خلدون ينخرط وقتئذ بجامع الزيتونة كطالب علم، فحفظ القرآن الكريم، وتعلّم القراءات السبع على الشيخ أبي عبد الله محمد بن سعد بن برّاك الأنصاري، والعربية على والده وغيره من الشيوخ: منهم إمام العربية والأدب بتونس أبو عبد الله محمد بن بحر الذي أشار عليه بحفظ الشعر، كما أخذ الفقه عن أبي عبد الله محمد بن عبد الله الجبائي وأبي القاسم القصير، وأخذ النحو والحديث عن أبي محمد الخضرمي إمام المحدثين والنحات بالمغرب، والعلوم العقلية عن أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الأبلي (11).

يحكم هذه المعطيات العلميّة التي تحصل عليها ابن خلدون الذي تولّى مناصب سياسية وإدارية سامية مثل القضاء والوزارة والسفارة والتدريس بجامع الزيتونة المعمور الذي أهله إلى مصاف الشيوخ الكبار، وجعله تونسيا بحق باتفاق أهل الحلّ والعقد. مما دفع الدولة التونسية الحديثة إلى نصب تذكار له في شارع الحبيب بورقيبة تخليدا لذكراه، وإثباتا لانتمائه إلى هذا الوطن التونسي، إلاّ أنه كسائر الأعلام الكبار، تنقل من بلد إلى بلد، فقضّى 24 سنة بتونس و26 سنة بالمغرب الأوسط والأقصى والأندلس و 24 سنة بمصر حيث اشتغل بالتدريس بجامع الأزهر.

بموجب هذا التعريف، يحق لنا أن نتساءل عن العلوم والمشاغل التي شغلت ذهنه يومئذ، فكانت كثيرة جدّا، إلاّ أنّي سأقتصر كعادتي على

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

البعض منها مثل موقفه من السّاسة، فنقول: ماهو موقفه من الحكّام؟ وعلى ماذا ركّز في نظريته تلك؟ ولماذا شرح مخاطر الظلم على المجتمع؟ وما هو الحكم الذي كان يفضّله على غيره؟ .

نقول إن الساسة الذين كانت بأيديهم مقاليد شعبهم، يجب عليهم أن يبتعدوا عن الظلم والعدوان الذين يقضيان بطبيعة الحال إلى انكماش النّاس عن السعي والعمل الجاد في حياتهم، لأنّ الانكماش ينجرّ عنه طبعا الكساد في الأسواق وفي جميع ميادين الحياة، وبالتالي الإفلاس في النظام الاقتصادي، كما أشار إلى ذلك مؤرخنا ومصلحنا ابن خلدون بقوله: اعلم أن العدوان على النّاس في أموالهم، ذاهب بآمالهم في تحصيلها، وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها، انقبضت أيديهم عن السعي، وإذا قعد النّاس عن المعاش، كسدت أسواق العمران وآبذعرّ الناس في الآفاق (12).

كما وقع ذلك لدولة الفرس عبر التاريخ في القصة التي حكاها المسعودي في أخبار الفرس كقوله: "عن الموبذان صاحب الدّين عندهم، أيّام بهرام بن بهرام. وماعرّض به للملك في إنكار ما كان عليه من الظلم والغفلة عن عائدته على الدولة بضرب المثال في ذلك على لسان البوم حين سمع الملك أصواتها، وسأله عن فهم كلامها فقال له: إن بوما ذكرا يروم نكاح بوم أنثى، إنّها شرطت عليه عشرين قرية من الخراب في أيام بهرام، فقيل شرطها، وقال لها إن دامت أيّام الملك أقطعتك ألف قرية. فتنبه الملك من غفلته" (13). وخلا بالموبذان وسأله عن مراده، فقال له: أيها الملك إنّ الملك لا يتمّ عزّه إلاّ بالشريعة والقيام له بطاعته والتصرّف تحت أمره ونهيه.

ولا قوام للشريعة إلاّ بالملك ولا عزّ للملك إلاّ بالرّجال ولا قوام للرّجال إلاّ بالمال ولا سبيل للمال إلاّ بالعمارة ولا سبيل للعمارة إلاّ بالعدل... وأنت أيّها الملك عمدت إلى الضياع فانتزعتها من أربابها وعمّارها، وهم أرباب الخراج ومن تؤخذ منهم الأموال وأقطعتها الحاشية والخدم وأهل البطالة فتركوا العمارة وسوّحوا في الخراج لقربهم من الملك، ووقع الحيف على من بقي من أرباب الخراج وعمّار الضياع، فانجلوا من ضياعهم وحلّوا ديارهم وأووا إلى ما تعذّر من الضياع فسكنوها، فقلّت العمارة وخربت الضياع، وقلّت الأموال وهلكت الجنود والرعيّة وطمع في ملك الفرس من جاورهم من الملوك لعلمهم بانقطاع الموارد (14) فلما سمع الملك ذلك، أقبل على النظر في ملكه وانتزعت الضياع من أيدي الخاصّة وردّت على أربابها. وقوي بذلك من ضعف منهم فعمرت الأرض وكثرت الأموال عند حياة الخراج وقويت الجنود وشحنت الثغور وأقبل الملك على مباشرة أمرهم بنفسه فحسنت أيامه وانتظم ملكه... ففهم من هذه الحكاية : ان الظلم مخرّب للعمران وأن عائدته على الدولة بالفساد والانتقاص.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وأعظم من ذلك في الظلم وإفساد العمران والدّولة التسلّط على أموال الناس بشراء ما بين أيديهم بأبخس الأثمان، ثم فرض البضائع عليهم بأرفع الأثمان على وجه الغصب والإكراه في الشراء والبيع الذي يفضي بذلك إلى تلاشي الدولة وفساد عمران المدينة، وذلك بالاعتداء على النّاس في أموالهم وحرمهم ودمائهم وأسرارهم وأعراضهم الذي يؤذن بالخلل والفساد والهرج و"الثورة" (15).

وكأنّ ابن خلدون كان يتنبّأ بوضع حكّام العرب والمسلمين في القرنين: العشرين والواحد والعشرين، الذين أخلّوا بالأمانة وابتعدوا عن الدعوة الإسلامية التي كانت تأمرهم بأداء الأمانة إلى أهلها كقوله تعالى: "إنّ الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها" (النساء/58).

فالمبتدأ والخبر في أيّام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطات الأكبر والثاني مقدّمة ابن خلدون التي تحدّث فيها عن كلّ ما يهمّ الإنسان من قريب وبعيد. وبهذا يحقّ لي كباحث في هذا الموضوع، أن نقول إن ابن خلدون أنار لنا طرق الحكم المتّسمة بالعدل والمساواة والحريّة والكرامة المفضية إلى الديمقراطية الحقيقية التي تفضي بمن تمسّك بها إلى الازدهار والتقدّم في كلّ المجالات الاقتصادية والاجتماعية والعلمية والثقافية.

وهذا ما كانت تهدف إليه الثورة التونسية إبّان انطلاقها، منادية بأعلى صوتها بإزالة الظلم والعدوان والكبت والرشوة والتجاوزات غير القانونية، لكي ينعم الشعب بنسيم الحريّة والكرامة والديمقراطية التي تفضي بهم في النهاية إلى الازدهار في كلّ الميادين.

هذه الأهداف النبيلة المتمثلة في المطالب الشعبية، لا يمكن تحقيقها في الواقع المعاش، إلاّ في ظلّ حكم مقيّد بقوانين دستورية محدّدة، تجعل الحاكم، يستشير كل المجالس التشريعية من حوله في القرارات السياسية والاقتصادية والثقافية التي تدلّ على أنّه يسير بشعبه في طريق الديمقراطية التي تفضي بهم إلى التنمية في جميع المجالات كما حثنا ابن خلدون على هذا الاختيار في الحكم المفيد للوطن والخدمة جمعاء بدليل أن ذلك الحاكم الفارسي الذي ابتعد عن نظامه السّابق، واختارا نظاما يمتاز بالعدل والإنصاف، فانجرّ عن ذلك الرخاء للجميع وانكب الناس على أعمالهم بكلّ إخلاص، فازدهرت الحياة الاجتماعية وعاد الناس إلى ضيعاتهم الفلاحيّة، مستخرجين منها كنوزا لا تحصى ولا تعدّ.

كل ذلك وقع بفضل الحكم المقيّد بقوانين .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الزاوية الرحمانية بسليانة
وأشكال مقاومتها للاستعمار

بقلم: د . محمد الرزقي.

التمهيد: تعتبر زاوية "سيدي عبد الملك" من أهمّ رموز زوايا الطريقة الرحمان بالبلاد التونسية بالبلاد التونسيّة، وتظهر أهميّة هذه الزاوية في تعدد أدوارها وخاصّة تميّزها بدورها الريادي في مقاومة الاستعمار. لكن تاريخ هذه الزاوية ظل مجهولا حتى من قبل سكان الجهة أنفسهم، والذين لا يكادون يعرفون شيئا عن تاريخ هذا المعلم ورجالاته، نظرا لغياب الدراسات التاريخية الجادة، فضلا عن تعدد حملات التشويه والتي امتدت طوال نصف قرن، فتحول هذا المعلم في أذهان الخاصّة والعامة من جهة سليانة إلى رمز للتخاذل والتعاون مع المستعمر.

وتعود علاقتي بتاريخ هذه الزاوية إلى سنة تسع وألفين، لما قدمت ضمن فعاليات المؤتمر الوطني الثالث حول التصوف بالجزائر محاضرة عنوانها " الزاوية الرحمانيّة بسليانة وأشكال مقاومتها للاستعمار"، واكتشفت أثناء فعاليّات هذا المؤتمر أن بعض أعلام هذه الزاوية حظيوا بدراسات أكاديمية قيّمة – لم تصل إلينا في تونس- وأمنها طائفة من الباحثين المشهود لهم بالكفاءة على غرار الدكتور الجزائري عبد المنعم القاسمي، والذي اهتم بدراسة شخصية أحمد بن عيد الملك، وأفراد له حيزا هاما ضمن بحوثه الجامعيّة فضلا عن اهتمام المحامي علي رضا الحسيني بتاريخ هذه الزاوية إلى سنة تسع وألفين، لما قدمت ضمن فعاليات المؤتمر الوطني الثالث حول التصوف بالجزائر محاضرة عنوانها " الزاوية الرحمانيّة بسليانة وأشكال مقاومتها للاستعمار"، واكتشفت أثناء فعاليّات هذا المؤتمر أن بعض أعلام هذه الزاوية حظيوا بدراسات أكاديمية قيّمة – لم تصل إلينا في تونس- وأمنها طائفة من الباحثين المشهود لهم بالكفاءة على غرار الدكتور الجزائري عبد المنعم القاسمي، والذي اهتم بدراسة شخصية أحمد بن عيد الملك، وأفراد له حيزا هاما ضمن بحوثه الجامعيّة فضلا عن اهتمام المحامي علي رضا الحسيني والمؤلف لمائة كتاب – بتاريخ هذه الزاوية، والتي تصل في أحيان كثيرة حد الشغف. لأدرك حينها مقدار الضيم الذي لحق بتاريخ هذه الزاوية، وأوليت على نفسي أن أعدّ كتابا موثقا حولها علّه يساهم في رفع قسطا من هذا الحيف، لكن فكرة الكتاب تعطّلت نظرا لامتناع البعض عن مدي ببعض الوثائق، هذه الوثائق تملكها أسر بعينها وليدت متاحة للعموم مثل الوثائق التي بحوزة الأستاذ علي رضا الحسيني.

وسبب امتناع البعض يعود على أن هذه الوثائق تكشف بعض المعاملات الماليّة والعلاقات الشخصية على غرار المراسلات بين الشيخ المكي بن عزوز والذي كان مرشحا لتولي منصب الافتاء في الدولة العثمانية والشيخ أحمد بن عيد الملك، وهذا الأخير كان يساعد صهره الشيخ الملكي بن عزوز بجملة من المبالغ الماليّة، فرأى بعض أفراد أسرة بن عزوز نشر مثل هذه الوثائق مسّا بسمعة العائلة.

وسأحاول في هذه الدراسة أن أقدم بسطة تاريخية حول الطريقة الرحمانيّة والتي تنسب إليها زاوية "سيدي عبد الملك" فخلا عن التعريف بأهم أطوار هذه الزاوية. فما هو تاريخ الطريقة الرحمانية بالبلاد التونسيّة؟ ومن هم أهم رموز الزاوية الرحمانيّة بسليانة؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تاريخ الطريقة الرحمانية بالبلاد التونسيّة:

1) تاريخ الطريقة الرحمانية بالبلاد التونسية وأهم زواياها.

تعدّ الطريقة الرحمانية امتدادا للطريقة الخلدونية ، وأحد أهم فروعها، وهي تنسب إلى الشيخ محمد بن عبد الرحمان (ت 1793)، والذي يعد أول من أدخل هذه الطريقة إلى الجزائر وللبلاد المغاربية عامة[1]، وقد أخذها عن الشيخ محمد سالم الحفناوي (ت 1767)، لما أقام بمصر طلبا للعلم.

ودخلت الطريقة الرحمانية إلى تونس عبر منفذين، المنفذ الأول في الشمال الغربي، وهو مدينة الكاف، حيث أرسل الشيخ محمد عبد الرحمان أحد أتباعه المقربين هو الشيخ مصطفى الطرابلسي (ت 1776)، ليؤسس زاوية في هذه الربوع، إلا أن المنية عاجلته قبل إتمام مهمته فتولى الأمر من بعده الشيخ احمد بن علي بوحجر، والذي تمكن من إقامة زاوية رحمانية بين سنتي 1784 و1785 م[2] وما لبثت هذه الزاوية حتى صارت بمثابة الزاوية الأم، وأصبحت تمثل عنصر جذب للمئات من الراغبين في السلوك والترقي، حتى وصل عدد مريديها في أواخر القرن التاسع عشر، وتحديدا سنة 1896 ثلاثة آلاف مريد(2).

أما المنفذ الثاني، الذي دخلت منه الطريقة الرحمانية، وهو مدينة نفطة، إذ بعد أن بسط الاستعمار الفرنسي نفوذه على مناطق واسعة من التراب الجزائري ومن بينها منطقة بسكرة، والتي سيطر عليها المستعمر سنة 1843، غادر هذه المنطقة بعض أبناء الشيخ محمد بن عزوز شيخ الطريقة الرحمانية ليتجهوا صوب نفطة، فيؤسس الشيخ مصطفى بن محمد بن عزوز (ت 1866) زاوية، سرعان ما تحولت إلى أكبر الزوايا بمنطقة الجريد والوسط و الوسط الغربي.

فالشيخ مصطفى بن عزوز يعتبر صاحب الريادة في نشر الطريقة بتونس، حتى أن هذه الطريقة اشتهرت في صفوف أهل البلاد عامة وسكان الجريد خاصة بالعزوزية، وهي خلاف العزوزية المنسوبة إلى سيدي علي عزوز (ت 1710) (3)، و المتركزة بمنطقة زغوان على وجه الخصوص وتونس العاصمة، لتنتشر الطريقة الرحمانية في البلاد شرقا وغربا، حتى عدّ الباحث التليلي العجيلي عدد زواياها سنة 1925 وفق وثيقة عثر عليها في خزينة الوثائق الوطنية بست وخمسين زاوية [4] منتشرة من أقصى الشمال ببنزرت،

---

(1) النيال محمد المهلي، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص337، ط1، 1965

(1) – راجع الأخضر لطيفة، الإسلام الطرقي، ص 46، دار سيراس، تونس، ط1، 1993.

(2) – العجيلي التليلي، الطرق الصوفية، ص 51، منشورات كلية الآداب بمنوبة 1992 .

(3) – علي عزوز :من مواليد مدينة فاس، قدم تونس واستقر بمنطقة زغوان، بإشارة من شيخه أبو القاسم للوشة، وقد توفي سنة 1710، ودفن بهذه المدينة(راجع بوذينة ، مشاهير التونسيين، ص272).

(1)- العجيلي التليلي ، الطرق الصوفية ص 53 .

(2) – تونس عبر التاريخ، تأليف مجموعة من الأساتذة الجامعيين بإشراف الأستاذ حليمة الشاطر، 45/3، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية تونس 2005.

(3) العجيلي التليلي، الطرق الصوفية ، ص 40.

(4) – م.ن ، ص 47.

إلى أقصى الجنوب بتطاوين ومدنين، فضلا عن مناطق الوسط مثل صفاقس والقيروان.

وقدر عدد أتباعها 114.761، أي ما يعادل 5 % من العدد الجملي لسكان البلاد التونسية، والذي يقدر عددهم سنة 1921، بحوالي 2000939 نسمة (2) ويمثل هذا العدد حوالي 50% من نسبة أعداد المريدين بالبلاد التونسية إذ علمنا أن الطريقة القادرية تحتل المرتبة الأولى من جهة أعداد المريدين بزيادة طفيفة لا تتجاوز ثلاثة آلاف قادري، فقد قدر أعداد أتباعها سنة 1925 ب 117.681، ينتشرون على 109 (3) من الزوايا، في حين أن أعداد منتسبي بقية الطرق لا يكاد يذكر، إذ يبلغ أعداد منتسبي الطريقة المدنية والتي أسسها الشيخ ظافر المدني (ت 1852) 485 مريد (4).

إلا أن عدد الزوايا والأتباع بالنسبة للطريقة الرحمانية شهد تراجعا كبيرا بعد مرحلة الاستقلال، ويعود ذلك إلى مخلفات الحقبة الاستعمارية التي عملت على الحدّ من صلاحيات الزوايا، وصادرت الأحباس وقيّدت تحركات الشاهرين على شؤونها، فضلا عن تدخلها السافر في تعيين بعضهم.

أما في عهد الاستقلال، فقد عملت الدولة على الحدّ من تأثير الدين على نفوس الناس، واتجهت توجها ليبراليا بحت، يرى في القطيعة مع الدين، احد المقومات الرئيسية لتشييد دولة حديثة، على نمط الدول الأوروبية العلمانية.

لذلك حدّد الباحث محمد البهلي النيال، عدد الزوايا الرحمانية بالبلاد التونسية، في مطلع الستينات من القرن العشرين بسبع زوايا فحسب [4]، ولعل الباحث اقتصر على الزوايا المعروفة والمشهورة مثل الزاوية العزوزية بنفطة، وزاوية علي بن عيسى بالكاف، وزاوية القسطلي بباجة وزاوية سيدي البشير بتونس، وزاوية سيدي عبد الملك بسليانة، خاصة أن الكثير من الزوايا الرحمانية تعرضت للإزالة والإهمال مثل الزاوية الرحمانية بمنطقة سليمان بالوطن القبلي، والتابعة اليوم لولاية نابل، أزيلت بأمر من السلط العلية في أواخر السبعينات، في حين أن الزاوية الرحمانية بمنطقة الكاف تحولت إلى متحف.

وإن كنا نختلف مع الباحث محمد بهلي النيال حول العدد الحقيقي للزوايا الرحمانية بالبلاد التونسية في فترة الستينات، فإننا نتفق معه في مسألة التراجع الحاد للطريقة الرحمانية، سواء على مستوى أعداد المريدين أو دورها في التربية والسلوك، حتى أن دورها اقتصر في أحيان كثيرة على ترديد بعض الأوراد والأذكار، في مناسبات بعينها، ليختفي هذا الدور بدوره تدريجا، فلا يبقى من معاني التصوف وزواياه ، والذي ارتبط دوما بالذكر والمجاهدة والسلوك، سوى الاسم أو الجدران، كما هو الشأن مع الزاوية الرحمانية بسليانة، موضوع هذه المداخلة، والتي لعبت أدوارا جدّ مؤثرة إبان تأسيسها في مطلع القرن التاسع عشر، وخاصة دورها في مقاومة الاستعمار.

فمن هو مؤسس هذه الزاوية؟ ومن هم أهم رجالاتها؟ و ما هو دورها في مقاومة الاستعمار؟ وهل

4 النيال محمد البهلي، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص 339.

اقتصرت أشكال المقاومة عند رجال هذه الزاوية على حمل البندقية؟

2) تاريخ الزاوية الرحمانية بسليانة وأهم رجالاتها.

مؤسس الزاوية الرحمانية بسليانة هو الشيخ **عبد الملك بن أحمد الحمادي العوني**

(ت محرم 1256هـ/ مارس 1840)[5]، من ذرية الولي الصالح سيدي حمادة بن محمد العوني القيتوري، حفظ القرآن صبيا بزاوية جدّه، لينتقل بعدها إلى مدينة تونس ، حتى يواصل تحصيله ، فأخذ العلم عن أهم أعلام عصره مثل الشيخ صالح الكواش[6] والشيخ حسن الشريف[7] وغيرهما " مع فكر حديد وباع مديد، فحصل العلم وله الأدب راية خفاقة وعقود متناسقة " [8].

فانتدبه الباي حمودة باشا [9]، لخطة كاتب، لكنه سرعان ما ترك هذه الوظيفة، التي تنافس عليها الكثيرون، لينجذب إلى طريق التصوف، " فطلق الدنيا وخطب للرتبة العليا"[2] إلا أن المصادر والمراجع التي بين يدي لا تذكر سبب هذا التحول المفاجئ، خاصة أنه لم يبق في وظيفته سوى بضع أيام، وقبلها كان مصرّا على نيل هذه الوظيفة، باعتبارها كانت سببا في وصول بعض أبناء ناجعته إلى أرقى المناصب في الدولة، ومن بينهم الحاج بالضياف، وابنه أحمد ابن أبي الضياف، الذي وصل إلى رتبة وزير، كما أن نيل هذه الوظيفة لم يكن بالأمر الهين، بل تم بعد إجراء مناظرة في هذا الباب بين المترشحين، ويصور الشيخ عبد الملك ظروف هذه المناظرة، فيقول " تبارزت الخطوط ففاز خطنا"[3] بمعنى أن المنافسة كانت حامية وحادة، لكن الخطوط حلت محلّ السيوف.

إلا أنه زهد في كل شيء، بعد أن تملكه حال من الشوق إلى الله ملك عليه كل كيانه، ففضل راجعا إلى

5- سيدي حمادة : حمادة بن محمد بن عبد الواحد عبد السميع، من قبيلة أبو شعال الفواتير بزليطن بطرابلس الغرب ، والراجح انه توفي في أواخر القرن الحادي عشر، باعتبار أنه حبس جملة من الأراضي على أولاده وأحفاده ما داموا قائمين بشؤون الزاوية وكان ذلك سنة 1122 هـ (الهاني عبد القادر، صفحات من تاريخ سليانة ، ص 17).

6 صالح الكواش : أصله من الكاف وحمل لقب " كواش " ، لأن والده كان يعمل بمخبزة ، والمخبزة تسمى في العامية التونسية بالكوشة ، وقد ولد في ديسمبر 1724 وكان نادرة عصره في الحفظ وحدّة الذهن ، وسرعة البداهة ، وعدم خشية أحد من الأعيان ، توفي في شوال من سنة 1218 هـ/ 1 فيفري 1804 (إتحاف أهل الزمان 44/7) .

7- حسن الشريف : من علماء عصره ، تولى الإفتاء سنة 1815 ، كان عالي الهمة، حريص على حرمة الإسلام ومحارم المسلمين، توفي في ذي القعدة 1234 هـ/ 18 سبتمبر 1819 ، شارك الباي أبو عبد الله حسين باي في تشييع نعشه، وأنزله بنفسه إلى لحده (إتحاف أهل الزمان 69/7) .

8- ابن أبي الضياف أحمد ، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان تحقيق لجنة من وزارة الشؤون الثقافية التونسية، دار العربية للكتاب، 1999.

9 – حمودة باشا باي : ولد بتونس سنة 1759، و أنابه والده في الولاية، ثم استقل بها بعد وفاة والده، بعهد من الدولة العثمانية، له وقائع وآثار تدل على شجاعته ورجاحة عقله، اشتهر بحربه مع البندقية ، والتي دامت ثماني سنوات، توفي سنة 1814 (الزركلي، الأعلام 282/2)

(2) ابن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان 44/8

(3) – الهاني عبد القادر، صفحات من تاريخ سليانة الحديث ص 57 ، دار الشيماء ، ط 1، 1991

قريته، جاعلا همه الأوحد التبتل إلى الله والانقطاع إليه، فاتخذ خلوة بعيدة عن الناس،
توجد بالجهة الشرقية من قريته وتحمل إلى اليوم اسمه، وأحيانا كان يعتكف بمسجد جدّه الولي الصالح سيدي حمادة [7].

وتذكر بعض المصادر التاريخية وعلى رأسها كتاب الإتحاف لابن أبي الضياف
(ت 1874)، أن الباي حمودة باشا أقطعه أراضي شاسعة من هنشير سليانة، والتي تقدّر مساحتها بأكثر من 450 هكتار (2) بعد مشاركته في الحملة ضد داي الجزائر سنة 1807، والتي تعرف بواقعة مرّاط خاصة أن وزيره أبو الحاسن يوسف صاحب الطابع (ت1815) (3)، كان يعتقد في ولاية وصلاح الشيخ عبد الملك (4) فضلا عن شجاعة الرجل اعتبر الوزير سليمان كاهية (ت 1838) (5)، أن الشيخ يستحق هذه الأرض نظرا لشجاعته النادرة، بقطع النظر عن أمر صلاحه، إذ يقول: " شاهدته بعيني يهجم على صف الجند غير مكترث بالموت(6).

وقد يتساءل المرء كيف يمكن لرجل من أهل العلم والصلاح أن يقاتل أخاه المسلم؟ والإجابة عن هذا السؤال لابدّ من توضيح ملابسات هذه المعركة، والتي كان يراها الشيخ عبد الملك، بأنها قتال مع الإمام العادل ضد الفئة الباغية، والتي تمادت في غيّها، ولم ترغب في العودة عن ظلمها [8] والمتنزلة تحت قوله تعالى: " **وَ إِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ** "(2).

فضلا عن اعتقاده في صلاح حمودة باشا المنتسب للطريقة القادرية ، والذي تميز بعدله وحسن سيرته في الرعية، زيادة على صلاح وزيره يوسف صاحب الطابع قائد هذه الحملة، والذي عرف بتقواه وإجلاله لأهل الطريق، يضاف إلى كل هذه العوامل مشاركة نخبة من أعيان العلم والصلاح، ومن بينهم شيخ الزاوية الرحمانية بالكاف الشيخ يوسف بوحجر (3).

لتبني الزاوية على هذه الأرض، التي أقطعه إياها الباي، فينتقل إليها الشيخ عبد الملك بمعيّة أهله، خاصة أنه كان لا يأكل إلا من عمل يديه، من

---

(1)- راجع الهادي عبد القادر، صفحات من تاريخ سليانة الحديث، ص 44 .

(2)- جميع الروايات الشفوية تما فيها شهادة بعض أفراد أسرة عبد الملك، تؤكد أن مساحة الأرض 450 هكتار، الخاطئة التي تبعضهم الإطلاع على عقود الملكية والتحبيس، أما الباحثة لطيفة الأحضر فتذكر أن مساحة الأرض 300 هكتار وذلك بالصفحة 47 من كتابها الإسلام الطرقي، لكن دون أن تذكر مصادرها.

(3)- يوسف صاحب الطابع : أبو الحاسن يوسف خوجة صاحب الطابع ، أصله مملوك أهداه القائد بكار الحلولي للباي حمودة باشا، وكان عفيفا دينيا محافظا على النوافل والأذكار، كون ثروة ضخمة من التجارة والغزو ، واشتهر بفعل الخير، والإحسان للفقراء، وبناء المساجد ، قتل سنة 1815 (إتحاف أهل الزمان 99/7).

(4) ابن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان 44/8

(5) – سليمان كاهية : الوزير في دولة المشير احمد باي ، نشأ في خدمة الباي حمودة باشا ثم تدرج في الخدمة إلى أن صار آغة وخط باجة، ثم تقدم سنة 1807 كاهية للسفر بالغال توفي سنة 1838 (بوذينة ، مشاهير التونسيين، ص 171).

(6)- ابن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان 45/8 .

(1)- ابن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان 55/3-56.

(2)- الحجرات: 9

(3)- العجيلي النايلي، الطرق الصوفية، ص30.

خلال اشتغاله بالفلاحة، فيعمر المكان ويطلق عليه الشيخ اسم القنطرة، والتي تبعد اليوم حوالي 12 كلم عن وسط مدينة سليانة، وسبب تسميتها بهذا الاسم، حسب الرواية الشفوية، أن الأرض التي تقع عليها القرية، توجد بين وادين وهما وادي سليانة، وواد الأخماس، و التي كانت تسمى سابقا بمنشير البابوش، وتصبح موارد هذه الأرض مسخرة بالكامل للإنفاق على طلبة العلم، وأصحاب الحاجات وجميع وجوه الخير.

وقد أنجب الشيخ عبد الملك ابنين أحدهما اسمه إبراهيم ، أما الثاني فاسمه أحمد [9](ت 1921) وهو الذي سيخلف والده بعد رحيله في تسيير شؤون الزاوية، ونشر الطريقة الرحمانية، خاصة أن الشيخ أحمد عبد الملك متحصل على إجازة صريحة من الشيخ مصطفى بن عزوز (ت 1866)[10]. وحتى ندرك مدى ثقة شيخ الطريقة الرحمانية بنفطة في شخص أحمد عبد الملك، فقد زوجه إحدى بناته والمسماة الحاجة حفصة، وفوض له مهمة نشر الطريق بربوع الشمال الغربي، خاصة أن الشيخ أحمد عبد الملك يملك عدّة صفات تؤهله لمثل هذه المهمة، فضلا على انه من بيت صلاح وتقوى، فقد جمع العلم من أطرافه[11] ورغم أنه لم يذكر ضمن طبقات علماء البلاد التونسية – زيادة على ثروة ضخمة[12]، كانت ثمرة حسن استثماره لموارد الزاوية، واهتمامه الكبير بالفلاحة على غرار والده.

وقد تولى ابنه حسونة (ت1923) أمر الزاوية بعد نفي والده من قبل السلط الاستعمارية إلى تونس، فعمل على توسيع أدوارها الاجتماعية والتعليمية، ونتيجة هذه المجهودات صار اسمه مقرونا بالزاوية، فأصبحت تعرف أيضا بزاوية سيدي حسونة[13]، وإن كان الشيخ حسونة لا يضاهي والده من الناحية الشرعية أو العرفانية، إلا انه اجتهد في المحافظة على أدوار الزاوية ومكاسبها . وآخر من تولى أمر هذه الزاوية هو الشيخ عبد الباقي بن حسونة (ت 1960)، والذي لم يكن في حقيقة الأمر من أهل العلم وإن كان يحفظ نصيبا من القرآن، وإنما كانت معيشته وحياته أقرب إلى أهل الدنيا، لكنه كان مهتما بالزاوية باعتبارها من إرث أجداده، ورمزا من رموز الوجاهة الاجتماعية، فكان ينفق بسخاء على الطلبة المنقطعين فيها، وعلى جملة من الأيتام والمحتاجين.

لكنه اتهم بعد استقلال البلاد بالخيانة، والتعامل مع الاستعمار، نتيجة إهدائه عقد ثمينا لزوجة الجنرال ماست [14]، وإقامة مأدبة غداء على شرفهم، على

1: أحمد بن عبد الملك : ولد على الأرجح سنة 1821، واستمد نفوذه من مصاهرته للشيخ مصطفى بن عزوز شيخ الطريقة الرحمانية بالجريد، كما كانت له علاقة قرابة بشيخ رحمانية الغواط بالجزائر، توفي سنة 1921 (المحيلي، الطرق الصوفية، ص121.)

2: مصطفى بن عزوز : كان معظما عند الأمراء و يستعان بنفوذه في إخماد الفتن (راجع ترجمة في شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ص391).

3 :الطاني عبد القادر، صفحات من تاريخ سليانة الحديث، ص47.

12 : المحيلي الطيلي، الطرق الصوفية، ص121.

13 : الطاني عبد القادر، صفحات من تاريخ سليانة الحديث، ص26.

(1)- اليحياوي عثمان، الحركة الوطنية بولاية سليانة، حقائق ووثائق ، ص 253، 2006

عادة أهل البادية في الترحيب بالضيوف، ورغم شهادة بعض المقاومين بوطنيته، من أمثال الحبيب الموطي والشيخ عبد القادر زروق (ت 2009)، فضلا عن تكريمه من قبل الجمهورية الجزائرية في شخص ابنه الهادي عبد الملك، عن طريق قنصلها، في ذكرى الاحتفال بخمسينية الثورة الجزائرية ، نظرا لما قدمه للثوار الجزائريين من مساعدات.

إلا أن التهمة لازمته إلى مماته، ربما نكاية في أسرة عبد الملك، خاصة أن ابن عمه عبد الستار عضو المجلس الكبير، ناصر الحركة اليوسفية بكل ما أوتي من قوة ونفوذ، والتي كانت تريد الانقلاب على حكم بورقيبة في السنوات الأولى للاستقلال، فحوكم الشيخ عبد الستار بتهم عدّة، من بينها التعاون مع فرنسا والثراء غير المشروع، إلا أنه أثبت براءته من جميع هذه التهم، لتظهر محاكمته أنها محاكمة سياسية بالدرجة الأولى.

لكن الشيخ عبد الباقي تلظى بنار هذه الفتنة حيا وميتا، إذ منعت السلطات حينها دفنه بزاوية جدّه وبجوار والده، ودفن بمقام جدّه الأعلى سيدي حمادة، لتعاني أسرة عبد الباقي تبعات هذا الموقف، فعانت زوجتاه (رقية وجنات)، ويلات الفقر والحاجة، وهما اللتان كانتا تقريان الضيف وتحسنان للمساكين، فقد كانت لهما أيادي بيضاء على جملة من النساء، فسبحان المعزّ المذل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

وهنا أريد أن أعقب على هذه المسألة، والتي أعتبرها من الأهمية بمكان، أن الانتساب إلى التصوف، لا يكون بالنسب فحسب، وغنما بالإيمان والعمال والالتزام بمنهاج الكتاب والسنة، وكل شخص من أبناء الطرق الصوفية حاد عن الجادة وتهاون بأمر العبادة واهتم بمكاسب الدنيا يعجل له جزء من العقوبة في الحياة الدنيا، فيهان ويذل ويحرم من جميع الامتيازات، التي كان يتمتع بها فيصبح كابن سيدنا نوح عمل غير صالح، فالنسبة الحسية لا تشفع لصاحبه يوم القيامة، وإنما أساس التصوف الانتساب الروحي، أي الإقتداء بهؤلاء الأسلاف، الذين هم بدورهم يقتدون برسول الله صلى الله عليه وسلّم.

وقد وقفت شخصيا، على سيرة بعض أحفاد الشيخ عبد الملك، من لا هم لهم سوى اللهو والمجون، — مثل المسمى عبد الواحد (ت1932)- خاصة أنهم كانوا يحكمون على ثروة طائلة، فلم يكونوا يؤدون الفرائض، فما بالكم بحقائق التصوف، وهذا الأمر لا يقدح في سيرة ومسيرة أحدادهم كما يتوهم البعض وإنما لكل عمله.

فما هو دور زاوية سيدي عبد الملك في مقاومة الاستعمار العسكري والثقافي؟

3) أشكال مقاومة زاوية سيدي عبد الملك للاستعمار:

في حقيقة الأمر تعددت أدوار الزاوية الرحمانية بسليانة، إلا أن هذه المداخلة تركز على دورها في مقاومة الاستعمار، وإن كانت أدوارها الأخرى، سواء التعليمية أو الاجتماعية، تعدّ رافدا هاما لهذه الغاية الكبرى، وشكلا من أشكال المقاومة.

وقبل الخوض في مسألة المقاومة الفعلية، لابد من التذكير بالدور الريادي لهذه الزاوية، في تحفيظ القرآن، وأحكام الفقه على مذهب الإمام مالك، باعتبار أن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الجانب العقدي يعدّ الركيزة الأساسية لأي عمل جهادي، وهو ما انتبه إليه مبكرا الشيخ أحمد بن عبد الملك، إذا كانت الزاوية مقصد طلبة العلم من داخل تونس وخارجها [15]، وكانت كل سنة تخرج أفواجا من المؤدبين، يعودون إلى قراهم ونجوعهم لنشر تعاليم الإسلام، وحث الناس على الالتزام بفرائض الدين، وهو ما كان يقوم به الشيخ أحمد بن عبد الملك بنفسه من خلال سياحاته العديدة وتنقله بين القبائل، خاصة أن نفوذه كان يتجاوز قبائل أولاد عون ودريد، ويشمل قبائل أخرى قصية مثل قبائل خمير وعمدون (2)، فكان يذكر الناس بالأحكام الشرعية، ويحببهم في الإقبال على الله، فمن كان تاركا للفرائض أو متهاونا بها ذكّره بواجباته أو أيقظه من سباته، ومن وجده محافظا على الفرائض ذاكره في ركن الإحسان،

أما ابنه حسونة فكانت رؤيته أوسع لمسألة التعليم بالزاوية، والتي فرضتها المتغيرات التاريخية وعلى رأسها دخول الاستعمار للبلاد، فطلب من السلطات الفرنسية ترخيصا لفتح مدرسة فرنسية تلحق بالمدرسة الإسلامية التابعة للزاوية، شرط أن يشرف عليها مسلما [16]، وذلك ليقطع الطريق أمام التجنيد الإجباري، لأنه من كان يزاول تعليمه في الفرنسية، يعفى من الخدمة العسكرية، وفق منشور وزير الحرب في الحكومة التونسية، والمؤرخ بتاريخ 20 فيفري 1894.

كما كانت الزاوية تقدم الطعام لعابري السبيل، والمحتاجين، والأيتام، ولكل من يطلبه، وتقدم مساعدات عينية تتمثل في الحبوب والحاجيات الأساسية، حتى تقطع الطريق على المستعمر وحملاته التبشيرية، في استغلال ضعاف النفوس، واستمالتهم إلى جانبها، خاصة أن البلاد عانت ويلات الجفاف وقلة الإنتاج وكثرة الأوبئة زيادة على اضطراب الأحوال، نتيجة وجود المستعمر، والتي منعت تنقل " القبائل للمساهمة التقليدية في موسم الحصاد، مقابل جزء من المحصول، فاشتدت قسوة ظروف العيش على هذه القبائل " (2).

فمثلت الزاوية سياجا حاميا، لعقيدة أهل البلاد وكرامتهم، فضلا عن رفضها للاستعمار أو التعامل معه.

وقد ظهر هذا العداء منذ أول يوم وطئت فيه أقدام الجنود الفرنسيين أرض تونس، وذلك تماشيا مع خط الطريقة الرحمانية عامة، والتي تعدّ من بين الطرق القليلة في تونس، التي لم تهادن المستعمر، على عكس الطريقة القادرية التي تواطأت مع المستعمر ونسّقت معه، مثال ذلك ما فعلته الزاوية

---

(1)- اليحياوي عثمان، الحركة الوطنية بولاية سليانة، حقائق ووثائق، ص 27

(2)- النحيلي النفيلي، الطرق الصوفية، ص 126.

(1)- رسالة وجهها المراقب المدني بمكثر إلى المقيم العام بتونس مؤرخة في 5 جوان 1894، ووردت هذه الرسالة في ثلاث صفحات

(2)- تونس عبر التاريخ، 26/3 .

القادرية بالكاف [17]، عن طريق شيخها المدعو قدور، أو الزاوية التيجانية ببوعرادة، التي سارت في ركاب المستعمر.

ونتيجة لذلك، فقد أصدر الجنرال فيلبار، منذ السنة الأولى للاستعمار بالبلاد التونسية قرارا بنفي الشيخ أحمد بن عبد الملك إلى تونس وذلك سنة 1882، وإبعاده عن مسقط رأسه، حيث أتباعه ومصادر قوته ونفوذه، و لم يعفى عنه إلا سنة 1888 (2)، إلا أن الشيخ أحمد أمعن في معارضة الاستعمار، ورفض العودة إلى سليانة ليستقر بمنطقة تبرسق، ويؤسس بها زاوية، واصلت نشاطها في نشر تعاليم الإسلام، ومقاومة المستعمر (3).

لذلك اهتم الشيخ أحمد بن عبد الملك من قبل السلط الاستعمارية، أنه له علاقة مع الخلافة العثمانية والجزائر، وأنه شجع الناس على الهجرة إلى سوريا زيادة على جمع التبرعات المالية لمساعدة الخلافة العثمانية في مجهودها الحربي، والتي كان يراها الممثل الشرعي و الحقيقي للأمة الإسلامية على اعتلالها ووجود بعض مظاهر الفساد فيها(4).

كما كان له دور مميز، بمساعدة ابنه حسونة، في جمع التبرعات، وتقديمها إلى أهل طرابلس إبان الغزو الإيطالي، وعمل الشيخ حسونة أيضا بإيعاز من والده على عرقلة مشاريع المستعمر، في الاستيلاء على الأراضي وتقديمها للمعمرين، من خلال عرقلة المشاورات المتعلقة بمشروع واد بوزافة لري سهل سليانة ([18])، والإقدام على شراء الأراضي حتى لا تباع لغير أهل البلاد.

وقد رأى بعض الباحثين أن شراء الشيخ حسونة لهذه الأراضي، تقف وراءها غايات ذاتية، من بينها توسيع أملاكه، والحقيقة أن الدافع الرئيسي كان دافعا دينيا وطنيا في المقام الأول، فالرجل لا تنقصه الأراضي والعقارات ،فماذا ستضيف بعض الهكتارات في أملاكه والتي تقدر بأكثر من 3000 هكتار (أملاك والده التي كان يتصرف فيها ثم تقاسمها فيما بعد مع شقيقه عبد الواحد).

ولم تتوقف أدوار زاوية سيدي عبد الملك عند حدود سليانة أو الشمال الغربي، بل وصلت إلى تونس العاصمة، ولا أدل على ذلك أن منزل الأسرة بنهج المرّكان قبلة الفارين وبعض المقاومين للمستعمر، إذ توفي بهذا المنزل الثائر علي بن عمار العياري

(ت1884) والذي أرهق السلط الاستعمارية، فحمل معززا مكرما في جنح الليل حتى يواري الثرى بمسقط رأسه بجوش الصفايا بمكثر (2).

(1)- راجع الأخضر لطيفة ، الإسلام الطرقي ، ص 48

(2)- العجيلي التليلي ، الطرق الصوفية ، ص 121 .

(3) الأخضر لطيفة ، الإسلام الطرقي ، ص 47 .

(4)- راجع العجيلي التليلي ، الطرق الصوفية ، ص 167 .

(1)- العجيلي التليلي ، الطرق الصوفية، ص 155 .

(2)- الهادي عبد القادر ، صفحات من تاريخ سليانة الحديث، ص 65 .

كما كان الشيخ أحمد بن عبد الملك، بمعية أبنه حسونة، يوجهان مساعدات دائمة ومنتظمة إلى الشيخ محمد المكي بن عزوز (ت 1914) ابن الشيخ مصطفى بن عزوز، والفار إلى إسطنبول ([19])، فلم تشغلهما شواغل الداخل على أداء واجبهم تجاه إخوانهم وأقاربهم الذين فرّوا إلى كل من تركيا والجزائر وليبيا وغيرها.

وكانت السلط الاستعمارية تدرك أهمية الشيخ أحمد بن عبد الملك، وتأثيره على أتباعه في كامل الشمال الغربي، فكانت تلجأ إليه في الأزمات مكرهة، لحل بعض المشاكل مثل طلب السلط الاستعمارية منه التوسط لحل مشكلة المركب الفرنسي، والذي كان بأيدي قبائل خمير(2)، خاصة أن جلّ هذه القبائل كانوا من أتباع الطريقة الرحمانية، والذين وقفوا بسالة أمام المستعمر، فقبل الشيخ أحمد التوسط حقنا للدماء، ومنح فترة استراحة للمقاتلين، حتى يستردوا أنفاسهم ويعودوا بأكثر قوة (3)

ولعل الصورة الأوضح لمقاومة زاوية سيدي عبد الملك للمستعمر، تتجلى في إقدام محمد بن إبراهيم (ت1901) حفيد الشيخ عبد الملك المؤسس، على حمل السلاح وإعداد المجاهدين، وخوضه معركة ضارية مع الجيش الفرنسي قرب مدينة الفحص (4) ، انتهت بهزيمته نتيجة تباين موازين القوى بين الطرفين، إلا أنه لم ينكسر ولم يستسلم، بل لجأ في مرحلة أولى إلى جبل السرج الحصين، لكن أمام تضييق الخناق عليه، وكثرة العيون التي كانت ترصده من المتعاونين مع المستعمر، فضلا على قلة الرجال الذين بقوا معه، قرر في مرحلة ثانية الالتجاء إلى طرابلس، بعيدا عن أيدي الاستعمار حيث أسس زاوية بتلك الربوع ومات هناك.

مع العلم أن محله لطحن الحبوب، والواقع بمنطقة القصور بالسفينة أحرقته السلط الاستعمارية، وآثار الحريق مازالت إلى الآن، أما خلوته فتم إلحاقه بأحد دور إحفاده وتم طمس أي وجود للشيخ محمد بن إبراهيم.

فمتى نرى محله الآنف الذكر إلى متحف، خاصة أنه مازال في حالة جيدة رغم مرور قرن من الزمان على هذه الواقعة، حتى يكون شاهدا دامغا، على دور رجال الطرق الصوفية في مقاومة الاستعمار.

---

(1)- البحباوي عثمان، الحركة الوطنية بولاية سليانة ، ص 354

(2)- الهجوي علي، مقاومة السكان التونسيين للاستعمار الفرنسي، المجلة التاريخية المغاربية ، تونس ، مطبعة الإتحاد التونسي للشغل العدد 34/33 .

(3)- العجيلي التليلي، الطرق الصوفية ، ص 112 .

(4)- راجع الهادي عبد القادر، صفحات من تاريخ سليانة الحديث ، ص 26 .



صاحب السمو الإبداعي

سلطان القاسمي

الفكر والانجاز (2)

بقلم: هشام دامرجي

دخل هارون الرشيد ذات مرة على ابنه المأمون الذي كان يؤثره على إخوانه ويكنّ له قدراً من الاعزاز والمحبة لذكائه وشغفه بالمعرفة، وكان المأمون يتناول كتاباً بين يديه فسأله الرشيد "ماهذا؟" فأجاب المأمون : "كتاب يشحذ الفكرة ويحسن العشْرة".

فقال الرشيد: "الحمد لله الذي رزقني من يرى بعين قلبه أكثر مما يرى بعين جسمه".

ولسنا نشك لحظة حين نتعرف على مسيرة صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي من خلال سرده للذات، أو بالنظر إلى إنجازات سموه الإنسانية على مختلف الأصعدة أن سموه كان ولا يزال يرى الأشياء بعين قلبه لا بعين جسمه، وعين قلبه هي التي خططت ورسمت خطوات إمارة الشارقة، عين مبدعة وقلب مرهف يؤمن بالثقافة والفنون والجمال: "الثقافة حجر الزاوية في التنمية المنشودة وهي ما يحقق التوازن بين الانتماء الحضاري وروح العصر، والثقافة رسالة للارتقاء بالذات وتهذيب النفس والسمو بالإنسان إلى مدارج الرقي والتسامح والتآخي بين البشر، والتعليم هو المفتاح الرئيسي للارتقاء إلى آفاق التطور والتقدم".

تلخص هذه المقولة لصاحب السمو حاكم الشارقة نظرته الشاملة الدقيقة لمفهوم التنمية المبنية على التعليم والثقافة وتشير إلى المنجز الكبير في المجال التعليمي والثقافي في الإمارة الباسمة وبمحمل الإمارات العربية المتحدة.

وليس المجال هنا للحديث عن التجربة التعليمية في الشارقة وفي دولة الامارت العربية المتحدة وهي تجربة انطلقت منذ زمن بعيد من رغبة شيوخها الأفاضل حتى من قبل اتحاد الامارات في تعليم رعاياهم وبناء دولة عصرية، فاستقبلت البعثات التعليمية خاصّة من دولة الكويت ومصر وابتعثت العديد من أبناءها لكسب العلم والمعرفة هنا وهناك في البلدان العربية وغيرها.

وتكللت جهود صاحب السمو حاكم الشارقة في مجال التربية والتعليم بعد سنوات من الصبر والتأني ببعث جامعة الشارقة سنة 1997 وتضم 14 كلية تشمل مختلف التخصصات المعرفية كالشريعة والدراسات الإسلامية، والعلوم، والهندسة وإدارة الأعمال، والعلوم الصحية، والقانون، والفنون الجميلة والتصميم، والاتصال والمجتمع، والطب البشري،

وطب الأسنان، والصيدلة – كما تتيح "جامعة الشارقة" برنامجاً للماجستير في مجالات عديدة.

وفي نفس السنة تم بعث الجامعة الأمريكية بالشارقة وهي تطبق النظام التعليمي الأمريكي وما يميز هذه الجامعة أنها انفردت بتجربة مهمّة من حيث نشأة وتطور مؤسسات التعليم العالي فحين فتحت أبوابها استقبلت سنة 1997 حوالي 285 طالباً وطالبة بدأوا الدراسة على يد 30 عضو هيئة تدريس، واليوم يؤمها 5300 طالباً وطالبة يدرسون على يد حوالي 360 أستاذاً متفرغاً من الباحثين المتميزين المشهود لهم بالكفاءة والخبرة.

وليس هذا مجال الحديث أو موضوع الكتاب، بل موضوعه رصد مسيرة رجل حاكم مثقف وسيرة مدينة و إمارة احتلت موقعاً متقدماً على خريطة مدن الفن والجمال والثقافة في العالم، وقد ارتبطت كل إنجازاتها الثقافية إن لم نقل كلّها باسم سلطان القاسمي ابنها البار وحاكمها المبدع الشاعر والمؤرخ والكاتب المسرحي.

والتربية والتعليم ليسا غاية في حدّ ذاتها بل وسيلة للرقي بالإنسان ودفعه إلى كسب ثقافة تهذّب النفس وتسمو بها، ذلك منطلق صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي حاكم الشارقة وفلسفة حكمه التي قامت على تقريب الثقافة من الناس، والناس من الثقافة ولا سبيل إلى ذلك إلاّ بالتشجيع على القراءة وجعل الكتاب في متناول الجميع.

فمعرض الشارقة الدولي للكتاب الذي تجاوز دورته الواحدة والثلاثين هو إنجاز من إنجازات صاحب السمو حاكم الشارقة: "لقد حرصنا أن يكون معرض الشارقة للكتاب حدثاً سنوياً لقناعتنا الراسخة بأهمية الكتاب كوسيط أول للمعرفة، ولقناعتنا بقيمة القراءة في تنمية الإنسان بعامة والطفل بخاصّة، ونعتقد أن المعرض قد أفلح في توفير الكتاب الجيد والمناسب للجميع. وبقي أن نعمل جاهدين لأجل ترسيخ عادة القراءة والمطالعة والإطلاع بين أوسع قطاعات من المجتمع وبخاصّة الطفولة والشبيبة والنساء.."

ومعرض الشارقة الدولي للكتاب هو حكاية عشق ونضال وصبر وإصرار على النجاح، فقد كان يمكن أن يتعثر منذ خطواته الأولى في بدايات الثمانينات من القرن الماضي غير أن نظرة صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي الاستشرافية الثاقبة وتعهده شخصياً بالسهر والمتابعة لأدق تفاصيله وصلت به إلى الدورة الحادية والثلاثين، حيث شاركت فيه أكثر من 900 دار نشر محلية وعربية ودولية بأكثر من 300 ألف عنوان كتاب، وكانت النشاطات الثقافية المصاحبة للمعرض لا تتجاوز ثلاث فعاليات طوال أيام المعرض أصبحت في دوراته الأخيرة تحتضن يومياً أربعة أو خمسة أنشطة موزعة على القاعات والمقاهي الثقافية وموجهة لمختلف شرائح الزائرين من عرب وأجانب.

لقد استطاع الحاكم المبدع المثقف أن يجعل من تظاهرة ثقافية مناسبة سنوية ينتظرها الناس في مختلف البلدان العربية وخاصّة الخليجية، وأن يجعل منها رئة الشارقة التي تجدّد من خلالها الهواء الثقافي، وكرتفالاً للثقافة يجسد ترجمة لرؤية مثقف وحاكم عربي استثنائي من خلال علاقته بالكتاب بل ومشاركته الشخصية في عالم الإبداع والكتابة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

سلطان والمسرح

ارتبط اسم المسرح في الامارات العربية المتحدة باسم صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، فقد شجع سموه الحضور المسرحي حتى في أوساط الطفولة من خلال مهرجانات المسرح المدرسي، والمسرح الجامعي والمسرح المحترف، علاوة على إسهاماته الجليلة في مجال الكتابة المسرحية، وسموه من أغزر كتاب المسرح في الخليج العربي.

ويتجلى اهتمام سموه بالمسرح الهادف من خلال رئاسته الفخرية للهيئة العربية للمسرح، ومن خلال رسالتي سموه إلى أهل المسرح عامّة في اليوم العالمي للمسرح سنة 2007، هذه الرسالة خرجت في ثلاث لغات عالمية هي العربية والانجليزية والفرنسية، وفيها رؤية سموه للمسرح ودوره في حياة الناس كفن من أعرق الفنون الكونية. كما يتجلى شغفه بهذا الفن الراقي من خلال ممارسته للكتابة المسرحية، وقد كتب سموه إلى حدّ الآن ثمانية نصوص مسرحية هي "عودة هولاكو" و"القضية" و"الواقع طبق الأصل" و"الاسكندر الأكبر" و"النمرود" و"شمشون الجبار" و"الحجر الأسود" و"طورغوت" وكلها مستمدة من التاريخ وفيها إسقاطات على الواقع المعاش، ونظرة استشرافية للمستقبل، وتحمل قيماً إنسانية أعطاها سموه من قلمه المبدع أبعاداً جلية فيها العبرة والاعتبار.

في مسرحية "النمرود" يقف الحاكم لينقد جبروت الحكام والتي تحكي قصّة النمرود، الذي ادعى الربوبية وتجبّر على شعبه وطلب من الناس أن يركعوا له وأن يعاملوه كإلاه لتأتي نهايته على يد جيش من البعوض خاض معه معركة خاسرة انتهت بدخول بعوضة إلى أنفه انشغل بها فضرب بالنعال من طرف شعبه وانتهي حاكماً وإلاهاً.

وبعد ثلاث سنوات من عرض هذه المسرحية في أكثر من بلد عربي وأوروبي جاء "الربيع العربي" ليؤكد هذه النظرة الثاقبة والاستشرافية لما سيؤول إليه وضع الحكام أينما كانوا إذا تواصل جبروتهم واستخفافهم بشعوبهم.

أتوقف هنا في هذا الباب عند مسرحية تهم بالأساس أهل المغرب العربي،وتحمل اسم "طورغوت" الذي نعرفه هنا في تونس باسم "درغوث" وهي مسرحية مفعمة بروائح المتوسط متنقلة بين جزره «مالطا، كورسيكا، جربة» وتسوق لنا ذكري شخصية ارتبط اسمها بالذاكرة الشعبية التونسية الوفية لأبطالها،وها هو صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي ينفض عنها الغبار وقد انكب صاحب السمو حاكم الشارقة علي كتابتها في وقت قياسي لتكون حاضرة للتوزيع في معرض الشارقة الدولي للكتاب في دورتة الثلاثين ونقدر الجهد الكبير الذي بذله صاحب السمو حاكم الشارقة لتخرج المسرحية كاملة متكاملة في فصولها الأربعة معتمداً سموه علي العشرات من المراجع التاريخية التونسية والتركية والفرنسية والانجليزية.

ففي شهر سبتمبر 2011 الماضي، بلغت سموه دعوة تكريمه في مهرجان قرطاج المسرحي، وكان سموه يكرم من طرف منظمة اليونسكو فقال سموه:

(كيف، أذهب إلي قرطاج ويدي عالية...؟).

وكان صاحب السمو حاكم الشارقة قد قرأ منذ سنوات خلت بعض المعلومات حول معركة جربة خلف لوحة زيتية بعنوان (برج الؤوس) استمد منها

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

موضوع مسرحية سموه بالرجوع إلى عدد كبير من المراجع التاريخية المختلفة المصادر لتكون هدية قرطاج في أيام قرطاج المسرحية. تبدأ المسرحية في فصلها الأول بأسر القائد البحري (طورغوت) غدراً على سواحل جزيرة كوريسكا، وفي فصلها الثاني يصور سموه قدوم القائد خير الدين بربروس لتخليص (طورغوت) من الأسر وفديته لدي أعيان مدينة جنوه التي نقل إليها سجيناً أسيراً. وفي الفصل الثالث نقف علي الأحداث التي خلدتها لوحة(برج الرؤوس) فقد كرس البطل طورغوت حياته لتطهير البحار والموانئ التابعة للحكم الإسلامي في البحر الأبيض المتوسط وقد أفضت المعارك مع العدو إلي دحر أسطول(طورغوت) إلي المياه الضحله علي شواطئ جزيرة جربة التونسية، غير أنه وبمساعدة سكان الجزيرة استطاع الرجوع إلي الأعماق، وذلك بدفع وجر السفن علي جذوع الأشجار التي اقتطعها وأعدها السكان مساهمة منهم في فك الحصار عن جزيرتهم، فكانت واحدة من أكبر المعارك في المتوسط حيث استطاع ((طورغوت)) الاستيلاء علي ثمانية عشر ألفاً من جنود ما كان يسمي وقتها بالحلف المسيحي المقدس.

تنتهي مسرحية صاحب السمو حاكم الشارقة في فصلها الرابع باستشهاد البطل ((طورغوت)) في معركة حصار مالطا في مشهد مهيب صوره سموه بتعاطف المفتخر والمعتز بتاريخنا وبطولاتنا مدققاً في لحظات حياة (طورغوت) الأخيرة وأحزان مرافقيه من الجنود الأبطال.

المسرحية لوحة رائعة بعيدة عن السرد التاريخي وحزمة من المشاعر المتدفقة بالفخر والاعتزاز والانتماء إلي تاريخ وحضارة الإسلام.

وحتى لو غفلنا عن سياق المناسبة والهدية فإن المسرحية تحيل علي العيد من الدلالات العميقة، أولي هذه الدلالات النضال الذي خاضه طورغوت لسنوات حتى يقضي علي قراصنة البحر الذين جثموا على صدر المتوسط وتونس بالذات أكثر من أربعة عقود كاملة ،وهذه الدلالة إسقاط على النضال الذي خاضه الشعب التونسي توقاً إلي الانعتاق والحرية.

ولأسر طورغوت دلالة واضحة علي أسر الصوت الحر المنطلق في آفاق البحار، فجاء من يحرره ويدفعه إلي النضال من جديد.

وفي دلالة أعمق يبرز سموه الدور الكبير الذي لعبه أهالي جزيرة جربة ((الشعب)) في فك الحصار عن أسطول طورغوت والمساهمة الكبيرة بقلع الأشجار، وشد جذوعها لتكون منزلقاً للسفن كي تعود إلي إبحارها. ويبقي مشهد استشهاد طورغوت الرمز والدلالة الكبري والتحية لشهداء تونس علي مر التاريخ ممن ضحوا بدمائهم من أجل وطن تملؤه نسائم الحرية ورائحة الياسمين.

وكان من المفترض أن يحضر صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي حاكم الشارقة أيام قرطاج المسرحية في دورة 2011 لعرض مسرحية "طورغوت" وتكريمه بما يليق برجل

مسرح ومبدع وفنان، غير أن الأحداث التي مرت بها تونس أجلّت ذلك إلى موعد آخر.

ينطلق صاحب السمو الشيخ سلطان بن محمد القاسمي في كتابة التاريخ، بل إعادة كتابته من الرغبة في تنمية الوعي لدى الأجيال وبعث الثقة في تاريخهم وحضارتهم والاستئناس برجالاتهم ونظالاتهم، وإذا أضفنا إلي ذلك حصول سموه علي دكتوراه أولي في فلسفة التاريخ، وأخري في فلسفة الجغرافيا، ووصول سموه إلي الوثائق العربية والأجنبية بسهوله ويسر بحكم مكانة سموه العلمية والسياسية ندرك مدى أهمية إسهاماته التأريخية التنويرية بأتم معني الكلمة التي جاءت أساسا دفاعا عن الوجه الحضاري للأمة العربية والإسلامية وليست من باب الرغبة الذاتية في الكتابة من أجل الكتابة.

فالمعروف والمؤكد أن المنطقة العربية والخليجية خاصة كانت علي مر العصور وإلى حد الآن منطقة صراع على النفوذ من طرف القوى الغربية وخاصة في فترة ما سمي بحركة الاكتشافات الجغرافية البحرية . حين حاولت تلك القوى السيطرة على المنافذ البحرية الواصلة بين الشرق والغرب في البحر الأحمر والخليج العربي ومضيق هرمز. وكان من الطبيعي أن ينشأ صراع بين تلك القوى الغازية والممالك والمشيخات العربية التابعة لتلك المنافذ الحيوية.

وقد اعتمد هؤلاء الغزاة من خلال رسائل مبعوثيهم إلى تلك المناطق حجة واهية لدواعي الغزو وهي درء وصد القرصنة العربية في تلك البحار وذهب العديد من المؤرخين والمستشرقين مذهبهم في ذلك حتى جاءت مراجعات صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي ليكشف النقاب عن الحقائق التاريخية من خلال المقارنة العلمية والموضوعية بين الوثائق العربية والاجنبية و"تسنى له الخروج بنتيجة توفيقية بينها متوخيا الدقة مما جعل استنتاجاته مطابقة للحقيقة والواقع" كما يقول يوسف السالم في كتابه (في رحاب التاريخ، قراءة في مؤلفات الدكتور سلطان بن محمد القاسمي..)

لم يتصدي صاحب السمو حاكم الشارقة للتحيز الغربي عل تاريخ الدول والشعوب، بل دفع الشبهة عن بعض الشخصيات التي ظلمها تاريخ مبني على العداء والنفور من تلك الشخصيات كشخصية (أسد البحار) أحمد بن ماجد المولود في النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي في رأس الخيمة احدى إمارات دولة الإمارات العربية المتحدة والذي أدعت كتابات عربية وغربية أن ابن ماجد هو الذي دل وقاد المستكشف البرتغالي فاسكو ديغاما إلى رأس الرجاء الصالح وسهل له طريق الوصول إلى الهند من دون المرور على المياه العربية فكان سببا في السيطرة عليها وزوال ملك المسلمين منها ثم أحتلال القوى الاستعمارية الفرنسية والبريطانية بعد ذلك لها.

وفند صاحب السمو الشيخ سلطان بن محمد القاسمي هذا الرأي وبرأ ابن ماجد من هذه التهمة بالأعتماد علي وثائق غربية عديدة لم يرد فيها اسم ((أسد البحار)) بتاتا وكل مافي الأمر انه زج بأسمه لتشويه تاريخه كعالم بحار عربي ترك خرائط وأوصافا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

دقيقة ومفيدة للبحار في تلك الأيام وذلك كي لا تقوم للعرب مصداقية في أي ميدان يمكنهم أن يبرعوا فيه ويتنافسوا نظراءهم الأروبيين.

من ذلك كلّه يتجلي لنا بوضوح أن كتابة التاريخ وإعادة كتابته عند صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي منطلقه أساسا الدفاع عن موروث أمتنا العربية الإسلامية الحضاري والمعرفي.

الدرّة: دارة سلطان للدراسات الخليجية:

يحتاج اقتناء الوثائق والمخطوطات النادرة إلى أموال طائلة وإلى خبراء يقيمون تلك الوثائق والتحف وينظرون في قيمتها التاريخية والحضارية.

وقد مكنت اهتمامات صاحب السمو حاكم الشارقة ودراساته الأكاديمية في التاريخ والجغرافيا من ذلك الحس الفريد في حسن الاختيار وتثمين المقتنيات ويؤكد ذلك الأستاذ محمد مهدي عساوة أستاذ تاريخ الفن في معهد الشارقة للفنون بالقول: تبرهن سلسلة معارض المقتنيات والخرائط النادرة لصاحب السمو حاكم الشارقة علي تمتع سموه بذائقة انتقائية فريدة تمتاز بقدراتها الفائقة علي انتخاب وتخير الأعمال الفنية النادرة ذات الصلة اللصيقة بتاريخ المنطقة العربية والإسلامية بما تختص به من موروث حضاري يحمل من الثراء والتنوع ما يعطي إشارات واضحة علي عظمة تلك الحضارات الخالدة في التاريخ الإنساني، إضافة لمقدرتها على التواصل الخلاق مع حضارات العالم في الشرق والغرب بما يعكس الروح السمحة لحضارة العرب والمسلمين...

من هنا ندرك مد أهمية مقتنيات صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي من تحف ومخطوطات وخرائط والتي تضمها (دارة سلطان للدراسات الخليجية) التي بعثها سموه منذ سنة 2007 لتكون مرجعا مهما لكل دارس في مجال تاريخ وجغرافيا الخليج العربي والمنطقة العربية.

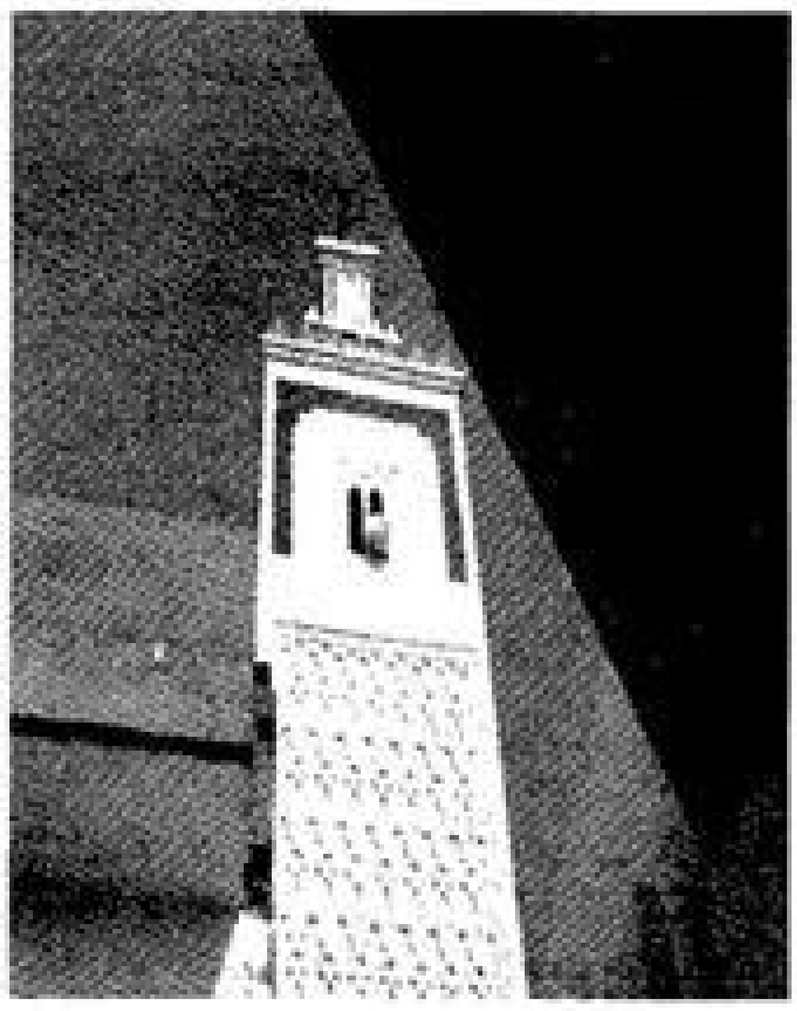
وتظم مكتبة الدارة أكثر من مليون ونصف المليون مادة ارشيفية علاوة على عدد كبير من الخرائط التي يعود بعضها إلي سنة 1493م وعلي 62 عملا طباعيا نادرا.

وقد تواصل جمع محتويات الدارة من مختلف بلدان العالم أكثر من 21 سنة لتكون في متناول الجميع دون مقابل مادي مثلما أعلن ذلك صاحب السمو حاكم الشارقة في افتتاح الدارة في شهر أفريل من سنة 2007 مرحبا بكل باحث ودارس يبحث عن الإضافة العلمية.

ومما لاشك فيه أن دارة سلطان للدراسات الخليجية ورغم عمرها القصير الذي لم يتجاوز حتى الآن خمس سنوات غدت تمثل إضافة فريدة لامارة الشارقة، ولدورها في الإشعاع الثقافي والحضاري على المستويين العربي والعالمي.

ومن منا لا يذكر تلك اللّفتة الكريمة والمبادرة الخيرة من صاحب السمو حاكم الشارقة حين أعلن حال ورود خبر احتراق المجمع العلمي بجمهورية مصر العربية تكفل سموه بترميمه على نفقته الخاصة كما أعلن عن تبرعه بنسخ نادرة من المخطوطات لدار الوثائق المصرية ومدّ المجمع العلمي كذلك بعدد من الوثائق والخرائط والدوريات التي فقدت من جراء الحريق بنسخ أخرى وصفها بأنها نادرة مؤكدا أن ما يقوم به ليس تكرما على مصر وإنما هو جزء من ردّ الجميل. وتلك شيم الأوفياء.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



جامع التقوى بسليانة

(2)

بقلم: الصحبي الزغبي

2)-الصحن:

قاعة مستطيلة الشكل غير مسقفة، حجمها صغير جدا مقارنة ببقية الوحدات المعمارية المكونة للجامع. يتوسط بيت الصلاة والميضاة ويحتوي الباب الكبير الذي يفتح على شارع 18 جانفي ثم الباب الشمالي الذي يشق الميضاة ويفتح على شارع بنزرت. كما يحتوي باب وثلاث نوافذ من الجهة الغربية متفاوتة الحجم وتفتح مباشرة على مسجد النساء الذي اقتطع بدوره جزء هام من الصحن.

ويستغل أيام الجمعة للصلاة نظرا لصغر المصلى ويمتاز بشكله المستطيل على غرار الجوامع المالكية. ومع غياب البهو يحتوي الجامع خمسة أبواب تؤدي مباشرة إلى بيت الصلاة منها المغلق: الأبواب التي أدمجت في مصلى النساء و منها المستعمل إلى يومنا هذا: بقية الأبواب. وهي أبواب مبنية مباشرة في الجدار الفاصل بين الصحن وبيت الصلاة.

باب في أقصى الجهة الشرقية ولا يستغل إلا أيام الجمعة وباب في أقصى الجهة الغربية وهو مغلق في الوقت الحالي، وبصورة عامة هما بابان صغيران لا يتجاوز عرضهما المتر الواحد في حين لا يتجاوز ارتفاعهما المتر والنصف. أما البقية فنجد بابين كبيرين يتوسطان الجدار وقادرين على استيعاب المصلين عند الدخول وعند الخروج. هذا ونجد باب أخر على مستوى البلاطة السابعة ويؤدي مباشرة إلى باب الإمام من الجهة الجنوبية.

ويتوسط هذه الأبواب ثلاثة نوافذ كبيرة تستغل للإضاءة والتهوئة.

ونسجل في هذا المستوى من دراسة مخطط جامع التقوى غياب قبة البهو والتي عادة ما توجد في اغلب الجوامع المالكية وهذا ليس بغريب إذا كان البهو كله غير موجود. هذا ونلاحظ أيضا غياب المزولة وذلك بالنظر إلى التطور التقني على مستوى أوقات الصلاة، كذلك غياب المآجل وهي عناصر نجدها في اغلب الجوامع المالكية ولكن وقع الاستغناء عنها حديثا نظرا للتطورات المسجلة في هذا المجال.

هذا تقريبا كل ما يتعلق بصحن الجامع وسوف نمر إلى أهم عنصر في دراسة الجوامع المالكية والذي حضي بأهمية كبيرة لدى الدارسين وهي بيت الصلاة فما هي أهم خصائصها المعمارية؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

3)- بيت الصلاة:

هي القاعة المخصصة للصلاة بأنواعها: الصلوات الخمس و صلاة الجمعة و التراويح والجنازة وغيرها وعادة ما تكون مفروشة بالزرابي وغيرها و توجد بها كتب القران و السنة وأدوات التسبيح. ولا يباح فيها الكلام ولا البيع ولا الشراء حتى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعى على من يفعل ذلك قوله " **لا اربح الله تجارته**": أي من قام بهذا الصنيع. ولا تجوز فيها سوى الصلاة والتلاوة والتسبيح والدعاء.. عكس بقية الوحدات المعمارية الأخرى المكونة للجامع.

وتستوجب بيت الصلاة حضور مجموعة من العناصر حتى تؤدي دورها وتستقيم تسميتها. وهي تقاطع مجموعة من البلاطات والاساكيب بتقدمها المحراب النصف دائري المحفور في الجدار الجنوبي للجامع... أما المنبر الخشبي المتحرك أو الثابت فوجوده ضروري أن كان المعلم جامعا وذلك لأداء خطبة الجمعة وغير ضروري أن كان المعلم مسجدا لأنه لا يحتوي سوى الصلوات الخمس.

أما عن بيت الصلاة بجامع التقوى فهي مستطيلة الشكل (**40 قدم * 23 قدم**). وتبدو من الوهلة الأولى أنها استجابت لضروريات الجامع المالكي. وبالتجول بين أعمدتها نلاحظ أنها تحتوي إشكالية، فهي التي عرفت إضافة كبيرة و تبدو جلية على مستوى البلاطة الخامسة شمال المحراب وهو ما سوف يعرضنا إلى إشكالية بسيطة على مستوى دراسة المعلم: هذا ما سوف يجعلني أقوم بدراسة بيت الصلاة عامة ثم وفي مرحلة لاحقة سوف أتطرق إلى كل الإضافات.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

1)-بيت الصلاة في شكلها الحالي: تمتد على مساحة حوالي 920 متر مربع وذلك باحتساب القدم. مستطيلة الشكل وتتكون من تسع بلاطات وأربع اساكيب كلها متوازية و متساوية. ويتوسط المحراب هذه البلاطات إذ نجد أربعة على يمينه وأربعة على شماله وهو محفور على مستوى جدار الأسكوب الأول إذا ما اعتمدنا اتجاه جنوب-شمال.

أما عن المحراب فهو نصف دائري وعادي، بسيط، تم تزيينه بالرخام وذلك باعتماد الأشكال الهندسية. نجد على يمينه مقصورة المنبر المتحرك على الطريقة المالكية وهو مشيد من الخشب التونسي العادي. أما على شماله فنجد باب الإمام على مستوى البلاطة السابعة. نجد أيضا مكتبة صغيرة على يمين المحراب تحتوي مجموعة من كتب القران والسنة على مستوى البلاطة الثالثة التي تعلوها قبة نصف دائرية ويبدو انه المحراب القديم. أما على مستوى البلاطة الثانية فنجد باب صغير مغلق تعلوه نافذة.

تغطي بيت الصلاة سلسلة من القبو المكون من الأجر الصغير المخصص للغرض وهي سلسلة متوازية ومتقنة بدقة عالية: هذه الطريقة من التغطية موجودة في كل المنازل التي بنيت بالحجارة والاسمنت في تلك الفترة. أما البقية أي منازل الفقراء فتغطى بخشب الصنوبر و التربة ولا تزال مستعملة إلى يومنا هذا.

نجد أربع نوافذ من الجهة الشرقية كبيرة الحجم (حوالي 2متر * 2متر) و يتوسط كل نافذة اسكوب وهي أيضا أربع اساكيب كما ذكرنا.

أما من الجهة الغربية فلا توجد نوافذ لان الحائط الغربي للجامع موازي و ملتصق مباشرة بمجموعات سكنية و محلات تجارية.

وما نسجله في عمارة بيت الصلاة هو غياب الشكل البازيليكي الذي عرفت به الجوامع المالكية القديمة التي عادة ما تكون فيها بلاطة المحراب اعرض من بقية البلاطات وتكون صحبة الأسكوب الموازي للمحراب شكل حرف " ت" لاتيني هذا ونسجل غياب قبة المحراب: وهي قبة صغيرة عادة ما تعلو المحاريب القديمة .

مثال لبيت صلاة على الشكل البازيليكي

وتتقدم بيت الصلاة من الجهة الجنوبية قاعة مستطيلة الشكل يتقدمها باب يفتح مباشرة على شارع 18 جانفي من الجهة الشرقية وهو باب الإمام. وتضم هذه القاعة كل من بيت الإمام ومقصورة المنبر وهي قاعة عادية.

هذا تقريبا كل ما يتعلق ببيت الصلاة في شكلها الحالي ويبقى السؤال المطروح ما هو الشكل القديم الذي كانت عليه قبل حصول الإضافات المذكورة وما هو تأثير هذه الإضافات على المخطط العام لجامع التقوى وكذلك على المذهب إن كان مالكي أو حنفي؟

المتأمل في المخطط العام لبيت الصلاة بجامع التقوى يلاحظ أنها مبنية على مرحلتين وذلك إذا ما اعتبرنا المحراب القديم ومقصورة المنبر وكذلك أعمدة البلاطة الخامسة التي أُلحقت بدعامات عند حصول الإضافة وتبدو اعرض من بقية الأعمدة.

ونتيجة لذلك تتكون بيت الصلاة القديمة من خمس بلاطات، اثنين على يمين المحراب واثنين على شماله وهي تقريبا نصف بيت الصلاة الحالية إذا ما اعتمدنا عدد البلاطات.

وتتكون من محراب نصف دائري صغير وبسيط لا يحتوي زخارف ولا زينة وهو محفور في قوس البلاطة الثالثة. وقد تم تحويله اليوم إلى خزانة حائطية كتب عليها "**المكتبة الإسلامية** "

ولا أدري على أي أساس أعطي هذا العنوان لأنه وحسب رأيي، العنوان اكبر بكثير من المحتوى إذ لا تحتوي سوى بعض كتب السنة المتداولة والمعروفة في غياب أهم المصادر الإسلامية التي منعت لعقود في تونس.

وعلى يمين هذا المحراب وعلى مستوى البلاطة الثانية نجد باب صغير تعلوه نافذة و يبدو انه باب مقصورة المنبر القديم.

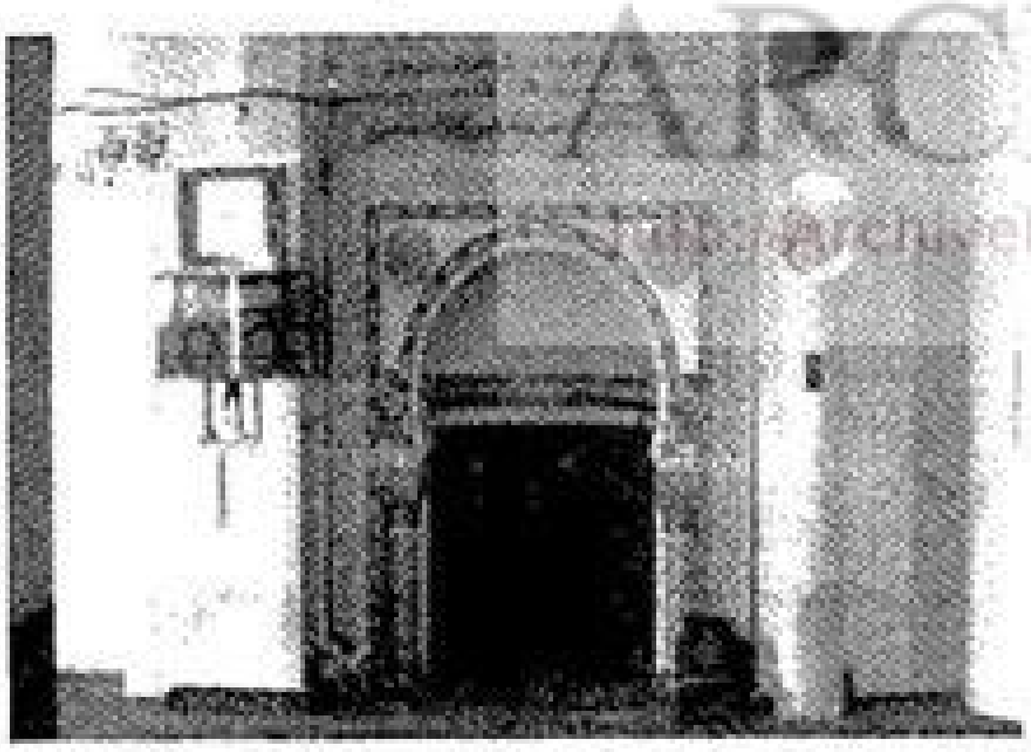
وفي غياب الزخرفة والزينة توفر المحراب القديم على ما يسمى **بقبة المحراب** وهو من أهم العناصر التي تكون المحاريب القديمة في العصور الوسطى و خاصة فيما يتعلق بالجوامع المالكية. وتبدو واضحة وجلية للعيان وذلك إذا ما جلسنا تحتها أو إذا ما اعتمدنا صورة جوية: وهي قبة نصف دائرية مقامة على قاعدة مربعة ويوجد في كل ركن من أركان هذه القاعدة طاقة نصف دائرية ويتوسط كل ضلع من أضلاع المربع نافذة صغيرة (أربعة

نوافذ) ويبدو أنها اعتمدت للإضاءة. إلا أن هذه القبة في حضورها الحالي تبدو خارجة عن إطارها المعماري إذ تفصل بينها وبين المحراب الحالي بلاطة كاملة: لذلك اليوم ليست بقبة محراب. ومثلما أثرت الإضافة على دور قبة المحراب فإنها أثرت أيضا على دور بعض الأبواب والنوافذ التي أغلق بعضها وفقد معناه مثل الباب الأيمن على مستوى البلاطة الأولى وكذلك النافذة التي تحاذيه وكلاهما ادمج في بيت صلاة النساء. ونتساءل إن كانت هناك نوافذ من الجهة الشرقية أم لا؟

أما عن تاريخ هذه الإضافة فقد حدثني احد كبار مدينة سليانة أنها تمت في **ثمانينات القرن الماضي**. كما اخبرني بأمر مهم جدا في دراسة عمارة الجامع وهو أن الإضافة الحالية كانت قبل سنوات الثمانين جزءا من صحن الجامع.

وإذا ما تأملنا في المخطط القديم لبيت الصلاة نلاحظ أن الصحن كان يحيطها من الجهتين الشمالية والشرقية، وهذا ما يجعلنا نتساءل عن مذهب الجامع القديم إذا كان الصحن في المذهب الحنفي يحيط بيت الصلاة من جوانبها الثلاث؟

وفي الحقيقة مهما كان الشكل القديم لبيت الصلاة فان المذهب وحيد أوحد **ألا وهو المذهب المالكي**. فالذي بنا الجامع وخطط له لا أظن أن تكون له مثل هكذا اهتمامات مذهبية. فالمجتمع السلياني في تلك الحقبة، مجتمع قبلي ريفي وسني تعلقت فيه قلوب الأهالي بالأولياء الصالحين على حساب الجوامع و المساجد وهو ما يفسر كثرة الزوايا.



ب)–المحراب الحالي:

هو المحراب الجديد الذي بني في ثمانينات القرن الماضي: نصف دائري ومحفور في الجدار الجنوبي للجامع يتقدمه تاج من رخام و جبس، مقام على عمودين صغيرين لا يتجاوز طولهما المتر يتكون كل عمود من قاعدة ثلاثية الدوائر وينتهي بتاج مزخرف.

أما عن التاج الكبير –تاج المحراب– فهو محيط بعدة وحدات زخرفية متنوعة الأشكال والزخارف غلبت عليها مادتي الجبس والرخام.

وفي آخر قوس البلاطة التي أقيم فيها المحراب من الجهة العليا، نجد تاج شيد بالجبس، كتبت فيه آية قرآنية: "بسم الله الرحمان الرحيم "**يا أيها الذين امنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم و افعلوا الخير لعلكم تفلحون**" وقد كان من الضروري تعريف الآية: ترقيمها وإلى أي سورة تنتمي.

هذا التاج مقام على قاعدة مستطيلة مصنوعة من الرخام كتبت فيها آية قرآنية دون بسملة ولا تعريف وذلك ربما لضيق المساحة المخصصة للكتابة على عكس اعلي التاج، و قد كتبت الآيات بالخط ألنسخي على غرار النقيشة التخليدية. وهو ما يجعلنا نتساءل إن كان نفس الخطاط الذي كتب النقائش؟

ثم وفي مرحلة أخيرة فقد أحيط المحراب بوحدات زخرفية مستطيلة الشكل ومنقبة وظاهرة للعيان. هذا المحراب نفسه موجود في **جامع النور** مع اختلاف القياسات، هذا الجامع تأسس في بداية ثمانينات القرن الماضي (1983) وهو تاريخ الإضافات التي حصلت في جامع التقوى وهنا نتساءل إن كان نفس البناء الذي صمم المحرابين؟

هذا تقريبا كل ما يتعلق بالمحراب الحالي الذي جاء منقوصا من قبة تعلوه على غرار كل الجوامع المالكية، هذه القبة ربما كانت ستضفي عليه جمالية تجعله أجمل مما عليه اليوم.

تناولت بالشرح تقريبا اغلب الوحدات المعمارية لجامع التقوى ما عدا بعض الوحدات البسيطة والتي لا تحتوي إشكاليات كبيرة.

1)–بيت صلاة النساء:

بيت صلاة النساء يعتبر من الإضافات التي أحدثت عند توسيع الجامع كذلك نفس الشيء بالنسبة للميضاة التي وقع تحسينها. وقد وقع اقتطاعها من الجهة الغربية للصحن لتفتح مباشرة في بيت الصلاة على مستوى الثلاث بلاطات الغربية. ونتيجة لهذا التغيير أصبح بابا ونوافذ البلاطات المذكورة تابعين لمصلى النساء.

وردت على شكل شبه منحرف يحتوي مدخل مستطيل به ميضة صغيرة مخصصة للنساء ثم قاعة كبيرة مفروشة للصلاة. تفتح على صحن الجامع من خلال باب و نافذة كبيرة، لها مدخل خارجي يفتح مباشرة على شارع بتزرت في أقصى الجهة الغربية من الشمال وهو موازي للباب الكبير الشمالي و باب الكتاب الذي يوجد في أقصى الجهة الغربية من الشمال موازي للمئذنة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

2)– لوحة أوقات الصلاة: (المزولة)

هي لوحة الكترونية مستطيلة الشكل تحتوي خمس دوائر على شكل ساعات متتالية ومرتبة حسب أوقات الصلاة من الصبح إلى حدود العشاء بالإضافة إلى صلاة الجمعة وتتغير الأوقات كل مرة بتغير أوقات الصلاة. هذه اللوحة جاءت لتعوض ما كان يسمى **بالمزولة** في الجوامع القديمة على غرار جامع عقبة بن نافع وجامع الزيتونة وعادة ما توجد في الصحن و تعتمد ثنائية أشعة الشمس و الظل لتحديد أوقات الصلاة.

3)– أعمدة بيت الصلاة :

أعمدة نصف دائرية، ليس لها قواعد، تعلوها تيجان مقلوبة وبسيطة ذوات قواعد دائرية الشكل تنتهي بمستطيلات. تغطي كامل مساحة بيت الصلاة وحتى على مستوى الجدارين الشمالي والجنوبي أما فيما يتعلق بالأقواس التي تعلو الأعمدة فهي متناسقة ومتناظرة على شكل أغصان شجرة النخيل.

4)– المئذنة:

المنارات التي ميزت العصر الوسيط كانت رباعية الأضلاع وتتراوح طوابقها بين اثنين وثلاث طوابق وتقوم بادوار أخرى إضافة إلى أدوارها الأساسية ونقصد الوظائف العسكرية، فاغلب منارات افريقية كانت تحتوي على شرفات تتخللها مرامي.

1-الشرفات 2- منارة ذات طوابق

أما المنارات العثمانية (الحنفية) فقد أصبح شكلها مثمن يغيب فيها مفهوم الطوابق المتراكبة. إذ تقوم على بدن مثمن مرتفع ينتهي بشرفة مثمنة.

شيدت إذن منارة جامع التقوى بمدينة سليانة على غرار المآذن المالكية الأخرى، إذ تتكون من قاعدة مربعة وكبيرة تحتوي باب للصعود، ثم نجد جسم مستطيل الشكل مزخرف على غرار المئذنة الحسينية بباب الجزيرة بتونس وهو اكبر من بقية الطوابق الأخرى. ثم نجد وحدة معمارية ثالثة مربعة تحتوي ستة نوافذ موزعة على أضلاع المربع إذ يحتوي كل ضلع نافذتين وتستغل اليوم لوضع مضخمات الصوت وتغيب فيها الشرفات التي كانت تستغل سابقا لإغراض عسكرية فمنارة جامع التقوى أتت لرفع الأذان وتطبيق ارث إسلامي قديم متعاقب عبر التاريخ.

تنتهي المنارة بشرفة صغيرة على شكل شبه منحرف وتتوسط المربع الأخير من المئذنة.

5)- الطابق الأول:

بني هذا الطابق حديثا أي مباشرة بعد الثورة (2011) وذلك بعد أن عطلت الأشغال عديد المرات من طرف السلط الحاكمة وفرض مراقبة خاصة على المتبرعين و المتطوعين.

بني هذا الطابق فوق الميضاة ومصلى النساء وهو عبارة على قاعة كبيرة ولا تحتوي أي إشكالية من إشكاليات العمارة الإسلامية إذ لا يحتوي بلاطات ولا اساكيب ولا حتى المحراب ذاته.

يصعد إليه بواسطة مدرج محاذي للمئذنة وقد أسس بعد أن غص الجامع بالمصلين وأصبح عاجزا تماما عن استيعاب المصلين سواء الصلوات الخمس أو صلاة الجمعة. يصعد إليه بواسطة باب وحيد من ناحية المدرج ويضم ستة نوافذ من الجهة الخلفية وستة آخرين تفتح مباشرة على صحن الجامع.

6)-الأبواب:

تنقسم الأبواب في جامع التقوى إلى قسمين، أبواب رئيسية وأخرى فرعية وهي في الحقيقة محدودة العدد:

بالنسبة للأبواب الرئيسية يمكن الحديث عن بابين اثنين: الباب الأول يفتح مباشرة على شارع 18 جانفي من الجهة الشرقية للجامع، لا يتجاوز ارتفاعه المترين في حين فان عرضه محدود لا يتعدى المتر والنصف، يغلق بباب من لوح يتكون من جزئين. هذا الباب صغير ومحدود ويمثل عائق عند خروج المصلين وخاصة أيام الجمعة لما يغلق بالمتسولين والباعة على الرصيف، إذ كان بالإمكان توسعته أو تدعيمه بباب أخر وذلك لتجنب الاكتظاظ للمسجل أيام الجمعة و حتى في الأيام العادية.

الباب الرئيسي الأول: شارع 18 جانفي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أما الباب الرئيسي الثاني فهو الذي يشق الميضاة ويفتح من جهة الشمال على شارع بنزرت وله تقريبا نفس القياسات مع الباب الأول ثم انه لم يحل مشكلة الاكتظاظ نظرا لتركيز المصلين على الباب الأول. ويقع استعماله خاصة من مصلي الطابق الأول وكذلك من الأسفل.

أما الأبواب الفرعية فهي التي لا تؤدي إلى الجامع وإنما تؤدي إلى وحدات معمارية أخرى مثل باب الإمام وباب مصلى النساء وباب الكتاب. ثم وفي مرحلة ثانية نجد أربعة أبواب من ناحية الصحن وتؤدي إلى بيت الصلاة.

الخلاصة

لن يخلص كلامي ولن اصمت ولن يتوقف قلمي عن الكتابة إلا إذا أنهيت دراسة كل ما له علاقة بالعمارة الإسلامية في جهة سليانة. هذه الرغبة الجامحة في خلق خصوصية تاريخية ومعمارية للمدينة و رفع التراب عما وقع ردمه والبحث في خبايا التاريخ جعلني أدخل البيت من بابه كما يقول المثل الشعبي فاتجهت إلى السيد والي سليانة الذي مكنني دون عناء من رخصة للبحث والتصوير في كل جوامع سليانة.

كنت أريد أن أنفذ إلى الموضوع من نافذته ولكنني منعت من التصوير في جامع التقوى ويحدث هذا بعد الثورة وقبلها لأنها ثورة لطالبين وليست ثورة مثقفين وباحثين.

منعني بعض الأهالي عن التصوير وخاصة منهم المسنين ولا أدري لماذا حتى أنهم لم يجيبوا على بعض الأسئلة التي كنت قد طرحتها والتي كان بالإمكان أن تفيدنا في هذا البحث. وما أتمناه هو أن تتغير هذه الأفكار المتكلسة والجامدة لصالح النهوض بهذه المنطقة.

بعد الانتهاء من دراسة عمارة جامع التقوى بمدينة سليانة يغمرني إحساس جميل أحسست به أول مرة وهو أنني عدت إلى بلدي بأفكار اعتقد أنها جديدة على المستوى الثقافي. ثم حتى وإن غادرت مرة أخرى، فإنني سأعود محملا بخصوصيات لبلدي ربما لا توجد في مناطق أخرى من الجمهورية وهذا ما سأسعى إليه.

أخيرا أود أن أوجه رسالة شكر إلى السيد أسامة الوافي إمام الخمس بجامع التقوى الذي سهل لي زيارة الجامع ثم السيد خليفة بوبكر الذي أفادني ببعض المعلومات المهمة. ثم تحية خاصة إلى الطالبة المتربصة زينب العياري التي ساعدتني في إعداد مخطط الجامع والتي ينتظرها مستقبل زاهر في هذا الميدان.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الذكرى الثانية لوفاة

الفقيد رضا العبيدي

بقلم: لطيفة العبيدي

إهدائي الخاص إلى من جعل حنيني إليه ألما وذكراه حزنا وخياله طيفا.

هذه الأيام من هذا الشهر تذكرني بذكرى رحيلك عنا وفراقك الأبدي بالرغم من مرور سنتين من رحيلك عن الدنيا إلا أني أراك في كل لحظات حياتي وأيامي. في كل شارع أمر به وحين أقف أمام معهد 2 مارس 34 بسليانة



أرى طيفك وأنت تلميذ وأنت حاضن لأترابك وقهقهة الضحك تملأ محياك وفرح الدنيا يغمرك.

حينما تستوقفني ذكرياتي وحنيني إليك (قهوة هوليود، مندوبية الشباب، دار الثقافة، دار الشباب، المسرح...) كل مدينة سليانة مازالت تحتفظ بخطواتك ونقاشاتك وضحكاتك مواقفك من قضايا الجهة حين ألتقي يوسف، عماد، معز، لطفي، عادل، كلهم أجد طيفك بينهم، استنشق رائحة عطرك في كل أرجاء المدينة وكأنك موجود معي وبينهم.

منزلك تملاه روحك في كل أركانه. خيالك، بصماتك، همساتك، زجرتك وغضبك يملأ الفرح بوجود أبنائك: **أسامة** فيه مشيتك. **شاهين** يلعب، يتحرك فتتحرك معه ملامحك، عنادك، ضحكتك، شخصيتك وكأنك أنت. أما **لينة** الجميلة دائما تناديك وتقبّل صورتك.

رقم حسابك الجوال مازال مسجل بهاتفي وكأني هاتفتك، لا أسمعك لا تجيبني كعادتك. يصدمني الواقع المرير أعرف أنه الموت الذي أخذك مني وأبعدك عني وأخذ كل شيء وكأن الموت قدري والحزن والألم دربي.



ماذا أقول لأعين أدمتها دمعا عليك

ماذا أقول لأضلع مزقتها شوقا إليك

ماذا أقول لقلب سكنه الحزن عليك

اه يا رضا كما قال صديقك

رضا ياكبكوب

علمت عمرك شيخنا المحبوب

حطى عليك الطوب

وزاد غطاها اللحود

ما اخيبها قلب الحبيب ياذوب

الله يرحمك في ترابك

نادت عليك الموت وسط أحبابك

وأنت صغير شبابك

رحمك الله برحمته الواسعة وأسكنك الجنة وجعلك من صحبة رسول الله

أخي وتوأم روحي ارقد بسلام فأنت قبل الموت زرعت الرجال. وصيتك شق في الجبال حتى آخر العمر ويوم اللقاء. ارقد بسلام ولا نكفر بقدر الله فالموت دائما يأخذ الأحباب.

رحم الله صديقنا وحبيبنا رضاء
واسكنه فراديس جنانه ورزق
أهله وذويه جميل الصبر
والسلوان

دقّات للزّمن الآتي

شعر: صالح الطرابلسي

دقّة أولى:

تك ... تك ... تك ...

يا الزّمن الذي يدقّ في

ساعتي...

أحاول !...

مرّ بي...

هذه الضباب تحاصرنا

بزحف...

الرمال !.. والبيادر !..

لطالما كانت سواعدنا في

جمع... سنابلها...

درست...

طحنت حبّات الهوى فينا ...

تفيّأ الطّحين ...

خبز الجائعين ما نضج !

"مازال يأتي الذي كان !"

دقّة ثانية:

تك ...تك ...تك ...

ساعة أخرى تؤوب بي إلى

أوان

ابتدائي !

هل، ليس لي أن أكون

ما شئت !؟

هل، ليس لي

أن أكون ما أشاء ؟

لي ما تشاء الساعة على

حائط الأقوى !

لي.. ما يشتهي القاتلون

أن أكون !

يا المحبة

أهطلي أشواقا وشجونا !

وافتحي كفك للبذار !

دقّة ثالثة:

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تك ...تك ...تك ...

النّاعون كذبوا !

هي السّاعة

أبدا تعود القهقرى،

والذي سوف يأتي

ما ذهب

يا المحبّة ،

افتحي للعاديات فسحة لكي

تضبح

ولتشيدي

للمغيرات صبحا... لكي

تصهل

يا المحبّة ،

كوني لنا الطّوفان

واغمرينا

دقّة رابعة:

تك ... تك ... تك ...

فلك الزّمان يدور حول حمم

شمس جديدة،

تطلع من غبش العمر

الطّاعن في الهوى ...

ترتدي متاعبها عشقا

يرتحل على نار، ويتقد

بالمحبّة !

تغريها تباشير الصّباح !

فتكتبه بأحرف،

من دم الورد ! وتحتفي

الأرض... بربيع التّلاقي !

يندلع زمزم من تحت

أقدامها

كي ينتشي الرّيحان ،

والكون يفيض بضوع

الأقاحي.

إجهاض

شعر: محجوبة الجلاصي

ويتسلّل وجهك لذاكرتي

تتكرّر الذكريات

مرّة تأتي مهزومة

ومرّة صدى الزغاريد تربكني

تبعثر أفكاري

وتشتّت أحلامي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يا عاشق الصمت

تكلم...

فالتي تسبّح

باسمك عديد

المرّات تتألّم

يا عاشق العزلة

اعبر ليلي

وافتح غربتي

لتجدني على

مشارف الشوق

فلتضمّني وتسافر

بي هناك...

حيث الضوء الشارد

الهارب منّي

لا بكاء

لا حزن

يتسلّل وجهك لفراشي

يهديني اخضرار

الربيع...

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وأغنية العشق

ورقصات الفراشات

ودميتي الضائعة

تختفي عنّي

من سنين

وتعود أحزاني

تصفعني وجهك

وحيرتي من جديد

نشيد العامل ميم... ميم

شعر: مختار المومني

الزمان

كحل جرحه بالرماد

واقف

شامخ مثل نخل الجريد

يمضي به العمر

فوق الصقالات

تورق بين يديه الحجارة

تعلو..

وتعلو فتصبح دورا

عامرة بالأنس

والبسمات

شامخ

له المدن

يؤثثها بالنشيد

يشعل العشق فيها

يزرع فتنته

ويؤسس كونا من الكلمات

ويحتفي بمملكة الحب

وينتظر موسم الخصب

بعد ثرة الياسمين

ويهتف للشمس انهضي.. إني صنعت الحياة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حديث إلى الحبيب
من قرطاجة إلى مكّة حيث النور ولد

شعر: أميرة الرويقي

من قرطاجة جنتك

ارض الرسول

هل اكتم عشقي عنك؟

أم تراني أبوح بما

لا أكتمه في الفؤاد

من حنين وجمال

وجوى،

للحبيب

للرسول؟.

****

حيث ارض منها الورد

قد ولد،

زادني العشق جمالا

للشروق، للاعتاق،

للتحلق

حيث سماءات

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لنجوم الوحي

في حراء

قد ولدت

فاستفاق من الوجد

ثم في العقل

استعر،

لانتفاض في الأبد.

****

كم تمنيت يا حبيبي

اللقاء،

ها قد أتى عتبات التمني

اللقاء.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كم طرت وليا

حين انتشرت في الأجواء

ياسمينا،

قد حملته معي

في حقيبة للقلب قدت

من برده

****

ها قد أتيت بلد الحبيب

والروح مني ارتعاش

في البدن

وحياة تتجدد

في الوريد

ترتعد.

تا الله كم كنت أهيم

وما أزال

حتى عنان للأمد

بحبيب نسغه

الشهد

والجمال

والثريا

تنير إليه دربي

ثم تغيباني للرحم.

ثم تلدني

ملاكا من غرام

وكلام،

وحديث في الظنون

واليقين

والجنون

والتمرد،

على عتمة تنسج في النور

دمي

والتيم مني يشتد

ويشد

كل يوم إلى الصمد

****

جنتك يا ارض عشقي

لحبيبي

لرسولي

لا اتيه عن قبلة

حمالة للشوق

لبدر قد تدفق من

رحم لامنة،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

رائعة الحسن

عند فجر

البدر والنور

والكون، تلده

وتلد

وتلده

****

اهواك حبيبي

كيف لي عشق سواك

وقد اتيتك

ومعي قرطاجة

والياسمين،

وثورات قد

اججت فيا،

كل البلد.

****

خلني عندك حبيبي

ارجوك،

خل معي في حضنك

قرطاجتي الحبيبة،

وحقول البرتقال والزيتون

وياسميني أنا.

هويتي

قلمي،

قراطيسي

وقصائدي

منك حبيبي تنتفض

ثم إليك عودها

وعود فينا حبيبي

كل البلد.

صفحة من أيام الشهيق

شعر: محمد البرهومي

من شرفة سوداء في بيت عتيقْ
ناديت: " يا أصحاب قد وقف الطريقْ

بحر من الظلمات يغرقني وما
هرعت زوارقكم لتنتشل الغريقْ

ماذا دهاكم أيها الخلان؟ هل
مات الوفا أم ضاع في الدرب السحيقْ؟

ARCHIVE

قد مزق الإعصار أشرعتي و (أر
http://Archivebeta.Sakhrit.com
سلت)الرياح مراكبي نحو المضيقْ

قد صيّرالبركان رمل شواطئي
حمما وأشواكا وآلاما وضيقْ

لكنكمْ مثل العمود وقفتمُ
"تتجرعون المرّ في صمت عميقْ"

وطني الحبيبُ يكاد يجرفه المدى
ويزجه التيار في قلب الحريقْ

تتقاذف الريح المقيتة زهره
وتدكه دكا صخور المنجنيقْ

غاباته الفيحاء داهمها الشتا
وأشاع فيها الرعد أصداء الزعيقْ

يا للأسى رسمت مشاعرُنا المنى
فأحالها الزلزال كالحصَب الدقيقْ

خمسون عاما والقلوب تكابد (ال
عتمات في الديجور تنتظر البريقْ

تتجرع الويلات آملة بأن
تتقلب الأحوال بالعدل الوثيقْ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لكن ثورتنا السخيفة لم تكن
إلا مواصلة لأيام الشهيقْ

ياليت صولتنا العقيمة لم تلدْ
سربا من الغربان تحترف النعيقْ

وضفادعا بلهاء أغلب همها
نفخ الحناجر والتشدق والنقيق

قوموا بني قومي لنزرع أرضنا

قيَما بها نسمو إلى مجد عريقْ

هيا نوحد شملنا (متجاوزين

من) الحقد والبغضاء والشر المحيقْ

متمسكين بأصلنا وجذورنا

متسلحين بفكرنا الحر الطليقْ

مفارقات:

مختارات: مختار المومني

*سكين

السكين التي ذبحت

كبش العيد

لم تقدر

أن تذبح قرص الجبنة

*مفارقات

يبني البناء قصرا لا يسكنه

يطهو الطاهي أكلا لا يأكله

والنسّاخ ينسخ كتبا لا يقرؤها

والنساج ينسج كفنا لكنه يلبسه

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

سماء ملبّدة

شعر: صفاء ذياب

غالبا...

أنشر أحزاني على الحبل

لأجمع المتساقط من أحلامي

في طبق من الخوّاء الملطّخ بالذبول

أرسم صوري

أنا المتأرجح بين كنت وكان

أرفع إطاري

ألبس شراشف الوقت

وأفسح قلبي لأقمار

طردتها السماء

لأبرّر اعترافاتي بكلمات خاوية

أفتح سلسلة الطلاسم

متمشيّا بين الجماجم

أنا، غالبا ما أنتشي بضياع ما

أبرهن الكذب أمام القضاة

أسجل اعترافاتي

بدم ناشف فوق الرغيف

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لأنسج من الخناجر حقائق

الغير

بعد قطرة من النزيف الملوّث بالجنون

يجب إقصاء المراثي إلى الجحيم

حينما أسدلت البقية إلى الجحيم

لأوقف الزمن المتقافز خلف العويل

نثرت الصباحات

بين هذيان ليال

أسلمته دما متوجرجا على شاطئ العرش

دائما... أوكل أقدامي إلى العرش

إلى خاتم يدور في اهتراءات اللّسان

لسان التألق، بعد كأس من الهتافات

لسان التأقلم، حينما تدوي التحيّة فوق الرؤوس

و..ها..ها..ها...

لا حمل أفقي

خلف زناد القمر المخمور

نجوم تطفأ خلف نجوم

أناصل ترسم كرسيًا لا غير

شفاه تطرب جمهورا.. تركوا القاعة

وارتشفوا من حرّ القيظ سراب

قلبي الأبيض

شعر: حبيب العرفاوي

وتلاطم الأيام

طيف غراب ماجن

يحجب في الأفق

سرب حمام

لا يحيد

جاثم على صدورنا

هنا.. لا نور لا ماء لا هواء

و تختنق كثيرا

بعدها.. تدوي أصوات يحجبها في المدى

أنفاس و صيحات

ما تبقى من البراكين

يغزوها الشك

بين الخضوع والمقاومة

هل قتل السلام ؟

ها انتحر التعاقب ؟

كانت نهايات العين تسيل

أنت على كل شيء جميل

دنست

باقات الورود البيضاء

لكنها لم تدنس.. قلبي الأبيض

فارتعش الظلام

البركان النائم

الحصان المهزوم بلا عربة وبلا ظل

قصّة: عبد الجليل الدايخي

أكاد أكون سعيدا جدا في حياتي اليومية، فقط عندما تغيب كل هذه الأسئلة، لكن الذاكرة هي التي تخونني، أحاول أن أتذكر ذاك الطفل الإفريقي فلا أجده، أحيانا يهرب مني وأخرى يضيع عني، وعندما أتناساه وأتحاشاه يدق على باب مخيلتي غصبا عني وينصهر في ظلي الذي يغيب كثيرا ويظهر قليلا، ظل أسمر نحيل يشبه جسدي ولا أجد فيه روحي، أحاول اليوم أن أقبض عليه بيدي أرفعه فوقا وأتأمله جيدا فلا أقدر، لأنني أحتاجه بدل ذاكرتي التي ينام عليها النسيان كغبار الشرق ولا يتركها تتنفس. ظل شاحبا وعطشانا كأرض إفريقية تتسول المطر صيفا وشتاء، قدمت أجره كحصان مهزوم يجر عربة خشبية قديمة مملوءة بجثث للموتى، العربة أصبح لها قيمة أكثر من الحصان، الذي ينتهي دوره في الحياة ويصير عاطلا عندما يفقد العربة، بل يخاف على نفسه من الانقراض كالديناصورات، وتتحول بطالته إلى أزمة وجودية. أنا ظلي هو عربتي الجميلة والمهيمة رغم أنها قديمة ومخيفة.

لما كنت صغيرا، كان ظلي هو صديقي الحميم، كان يلازمني كل يوم كتوأم لي، كنت أحدثه وأجري وراءه وأصنع منه أشكالا مختلفة، كنت أراه نهارا وليلا كما أرى الشمس والقمر، ولما يأتي الليل أنصهر فيه وأنام، كان يفرح ويحزن مثلي، كان ونيسي ودليلي الوحيد إلى ذاتي، لذلك أودعت فيه كل أسراري وكل أحلامي. انتظرني يوما ما في مكان فيه شمس، لم أذهب اليه، فغضب مني وهجرني. اليوم أصبح يغيب عني لأيام عديدة ويتركني وحيدا كالحصان المهزوم، كأنه لم يعد ينتمي إلى جسدي، أو هو يتحاشاني ويشعر بالعار لأنني أصبحت جسدا بلا روح، بل أحيانا أنساه تماما، لأنني أحاول التعود على العيش بدونه، ولما أشتاق إليه أعيد البحث عنه فلا أجده، أحمل خريطتي الكبيرة، أنظر يمينا وأنظر شمالا فلا أجد لي وطنا وأنظر فوقا وتحتا فلا أجد لي ظلا.

في لحظة ما أعيش بلا وطن، وبلا ظل، بلا شمس وبلا قمر، بلا أسرار وبلا أحلام، وأشعر بأنني معزول عن عالم الناس العادي. لذلك آتي إلى هنا، أحتاج النيكر الذي يعكس لي نفس الخيال الذي كنت أراه في النيل في صمت، أخاف من هذا النهر أحيانا عندما يتحمد، لأنني أعيش وقتها في منطقة من العالم اسمها منفى المهمشين.

أعرف أن لي تاريخا عظيما، ولي إمبراطورية عظيمة، كبقية الأمم. أجدادي حكموا العالم وبنوا مدنا، وخاضوا حروبا وانتصروا وانهزموا وبقاياهم لا تزال موجودة في الواقع وفي الذاكرة، لكن هل ينفعني كل هذا؟ بل على العكس من ذلك، زاد الأمر تعقيدا ومأساوية، فصرت موجودا في التاريخ، غائبا في الحاضر، يمكن أن أسميه بخاوية

زبالة التاريخ، كلما فتحناها إلا وأتت منها رائحة عفنة تخنق الواقع الذي يتنفس هواء من نوع آخر ولا يعترف بهذه التفاهات.

لاجئ مثلي يحمل كيسا من التاريخ على ظهره يرمي به في الزبالة ويحمل كيس الخبز والصبر، ماذا يساوي كل هذا التاريخ القديم أمام قطعة خبز تملأ البطن وقطرة ماء نظيفة تقتل العطش؟

لذلك أريد أن أغلق ذاكرتي بباب حديدي عظيم ومصفح، عوضا على ذلك الباب الخشبي المهشم والمغبر، لكن هل أقدر على ذلك؟ كم من مدينة فتحت أبوابها عنوة وانصاعت لحتمية الواقع. فما بالك بباب ذاكرتي، فهو لا يعدو أن يكون سوى لعبة خشبية صغيرة تعصف بها الرياح هنا وهناك فلا تترك أثرا ولا تسمع لها صوتا. في النهاية أحاول أن أتذكر فلا أقدر وأحاول أن أنسى فلا أقدر. ليت الحبة الصغيرة التي صارت زهرة ونبتت فجأة على الهامش أكلتها النملة.

ثلاثون سنة مرت كرمشة عين..! كحلم غامض..! كلحظة صمت خالية من مشاعر الفرح والحزن..!

كأنني قدمت البارحة، كأنه نفس الخيط الدخاني الذي خلفته طائرتي التي طارت بي أول مرة من الخرطوم إلى شتوتغارت.

ثلاثون سنة مرت وأنا لا أزال أحاول بناء كياني الحقيقي بهذه التفاصيل الغامضة جدا والبسيطة جدا. أبحث عن أشياء لها معنى في الفراغ وفي أشياء ليس لها معنى. أبي الذي لا أعرفه، وطني الذي لم أعد أنتمي إليه، أصلي الضائع، روحي النصف شرقية والنصف إفريقية التي اندثرت وسط زحام الحياة الغربية. وأسأل من جديد أقدري هو الذي يصنعني أم أنا الذي أصنعه؟ لكنهم صنعوا لي قدرا أنا بريء منه، كما يصنعون لي حذاءا لا يناسب قياسي، لكن علي أن أضع قدمي فيه وأسير في الصحاب رغم الألم، لأنه ببساطة ليس لي خيار آخر.

فكرت كثيرا وبحثت عن طريقة ما تحيي هذا الجانب الميت في حياتي، لأتذكر جيدا وأبني جيدا أيامي الباقية على أسس صحيحة وأجد بصمات خالدة تعرفني بذاتي وكيف بدأت كإنسان في هذا العالم.

شاهدت الكثير من الأفلام، وقرأت الكثير من الكتب وسمعت الكثير من الحكايات عن لاجئين من جميع أنحاء العالم. حكايتي الخاصة يمكن أن تكون واحدة من بين هاته الحكايات التي تختلف لتتشابه.

ثم ما العيب في أن أكون لاجئا؟ هل ارتكبت ذنبا في ذلك؟ فمنذ الأزل والإنسان بطبعه لاجئ، من أرض إلى أرض ومن قارة إلى قارة، أحيانا ينجو وأحيانا أخرى يموت، تارة يبني مدينة وتارة أخرى يدمر مدينة. في النهاية يبقى الإنسان لاجئا في هذا العالم حتى يمضي إلى الأبد.

ربما أسهل طريقة بالنسبة لي هي أن أروي حكايتي للناس، ثم من هم الناس الذين سيستمعون إلي؟ من يستمع إلي بالأذن التي أريد؟ في الثلاثين سنة التي مضت لم أجد أحدا يبعث في رغبة الحديث عن تلك الأماكن المنسية في حياتي.

الناس يعلمون بأني لاجئ وانتهى الحديث. لا فائدة من ذكر التفاصيل. ربما هم أنفسهم كرهوا حكايات الحروب والمآسي والأطفال المشردة والناس المعدومة. درج التاريخ أصبحت مملوءة مآسي ولا تتحمل المزيد. فتح

درج الماضي يعني الفوضى، دع كل شيء مقفل بحكمة، هكذا أفضل.. هكذا نحن جميعا سعداء. الماضي..! مزيج من الدماء والعرق والغبار والدموع ونيرون يرقص ويغني على قمة الجبل.. فلنرقص ونغني كنيرون.. لرومًا إلاه يحميها.

الناس يقولون لي، أنت هنا مرتاح. تأكل وتشرب وتنام وهذا يكفي لكي تحيا. ماذا تريد أكثر؟ دعك من خرافات الماضي.. أدراج الماضي النتن..!

بل يقولون لي بأن وضعيتي تحسنت كثيرا، كنت لاجئا، أصبحت أجنبيا ثم تحصلت على جواز سفر ألماني. إنس الجزء الأول من الحكاية، تذكر فقط الجزء الثاني، نيرون يرقص ويغني ويشرب نبيذا.

أعود إلى نفسي وأسأل لماذا لا أقدر على نسيان خرافات الماضي كما يقولون؟ هل أقدر على الحياة بدون هذا الماضي؟ لكن لا يهم..! عليّ أن أقنع نفسي بأنني أحيا بدون ألم. فأرنب صغير في قفص هو أيضا يحيا.

علي أن أسحن بركاني في داخلي وأصمت ولا أحدث أحدا. رغم أنني متأكد أن شفائي لا يكون إلا بانفجار هذا البركان لكي أحيا تلك الحياة التي تختلف قليلا عن حياة الأرنب داخل القفص الذهبي.

في أحد الأيام أخذت ورقة بيضاء وقلما وبدأت أرسم بالحروف بعض ملامح طفولتي الضائعة.. لكن بأي لغة..؟ فالتجرنية، كلغة أريترية محلية، هي لغتي الأم لكنني نسيت أغلبها، حتى أمي أصبحت بالكاد أفهمها، أو ربما أيضا بالعربية التي تعلمتها في السودان، لا أزال أتذكر منها إلا بعض الكلمات التي لا تقدر على صناعة نص ولا معنى، لكن تبدو الألمانية أقرب لي من كل اللغات الأخرى فأنا أعيش بها يوميا ومنذ سنوات بدأت أحلم بها.

كتبت الجملة الأولى.. والثانية.. والثالثة. في النهاية وبعد عناء تصبب عرقي نتن على الورقة البيضاء البريئة، تحصلت على فقرة.. قرأتها مرة.. ثم أعدت قراءتها مرات أخرى، أنا نفسي لم أفهمها.. كيف سيفهمها الآخرون؟ بدت لي جملة قبيحة.. شاذة.. عارية.. فارغة.. تافهة.. قلم أسود يكتب بالأحمر على ورقة بيضاء، قلم مدمن بالسم، كثعبان جائع وعطشان يزحف على صحراء يملأها السراب والقحط وبقايا طيور تصلي للمطر. رأيت صورتي المشكلة بالحروف غريبة عني وعلى العالم.

سألت نفسي هل أنا هذا الشخص المرسوم على قطعة الورق هذه؟ خطفتها بسرعة حتى لا يراها أحد ورميت بها في سلة المهملات وذهبت إلى مرآتي، وقفت أمامها وتأملت ملامحي الخارجية. ربطة العنق جميلة. وساعتي اليدوية ثمينة ونظاراتي الطبية تخفي الكثير من عيوني السوداء. هكذا أنا أجمل. على الأقل خارجيا، أو هكذا كما يريدني الناس أن أكون. كلماتي التي كتبتها شوهتني وجعلتني قبيحا أمام نفسي وأمام الناس. موت البركان خير من انفجاره، ماذا أفعل بالماضي المدمر؟ ماذا أفعل بالكتابة.. بالقلم.. بالألم.. بالحبر المصنوع من العرق والسم..؟

عدت إلى نفسي وحمدت الله على حياة الأرنب الصغير في القفص الذهبي، آكل وأشرب وأنام، وأغني وأرقص كنيرون. الاحتراق شيئا فشيئا، هكذا أفضل..!

ربما هو الضعف والخجل، الإنسان دائما وأبدا يبقى خجولا وضعيفا، وسلطة الآخرين عليه أكثر من سلطته على نفسه. ماذا لو سمع الناس بهذه التفاهات التي أكتبها؟ ما أظنني سأكون قادرا على السير أمامهم في الشارع. حتما سيقولون بأنني مجنون أو معقد أو تافه وغير ذلك.

حكاية مملة وقبيحة وبلا معنى، لكن من يصنع المعنى؟

الناس.. حمير الحياة اليومية.. يعملون.. يسرعون ولا يبتسمون.. التافهون.. نعم هم تافهون وأنا مختلف ومميز.

أحتاج التحدي، تحدي نفسي الخجولة والخائفة أولا والجزء النائم فيها، ثم تحدي الآخرين الذين يحكمون ببساطة وعفوية وسطحية وغباء. هذا ناجح وذاك فاشل. هذا طيب وذاك شرير، هذا عاقل وذاك مجنون. هذا غني وذاك فقير.

عليّ أن أكون قويا ولا أرضى بحياة الأرنب الصغير في القفص الذهبي. عليّ أن أجعل لنفسي مصيرا آخر ومعاني متعددة الألوان تثري حياتي اليومية التي تأكلها السنوات التي تركض كحصان هائج ليس له سياج. لم يعد أمامي الكثير من الوقت ولا الكثير من الاختيارات، انتظرت ثلاثين سنة، كم من يوم مرّ عليّ، كم من ليلة سألت نفسي.. الآن أو فلا كما يقولون..!

فأنا أحيا مرة واحدة، وحياتي هي ملكي الخاص، ليس لي فرصة أخرى للبحث عن طفولتي ونشر حكايتي لنفسي.. للذين يشبهونني.. للعالم.

النهاية واحدة ومعلومة، ككل النهايات. الناس سيضعون قليلا من الزهور على قبري.. ويقولون كان إنسانا طيبا.. وانتهى.. !

بل هم بعد ذلك سيحتفلون، سيجتمعون ويشربون نبيذا ويأكلون ويضحكون. بعد ذلك سيرثون كل ما أملك، كل شيء، حتى تلك الحاكيت البيضاء المرمية على الصخرة الكبيرة التي تسجن القارب الخشبي المسكين. هذه هي طقوس التأبين التي أعرفها.

سيموت الأرنب الصغير دون أن يشم هواء نقيا، دون أن يتسلق الجبال الوعرة، دون أن يتعلم السباحة والنجاة من الفيضان.. سيذهب ويبقى قفصه الذهبي.

لكن في كل الأحوال المسألة ليست سهلة، علي تحدى طفولتي المليئة وتحدي موتي الطبيعي، فأنا محاصر بموتين.

خلاص الإنسان من بعض المآسي والأمراض النفسية يكون أحيانا بمحيط إنساني سليم، متفهم وإيجابي التفكير، وخاصة العلاقات الخاصة، لكنني وبعد ثلاثين سنة أفقت بأنني بلا أصدقاء، وضع محزن، عندما لا تجد من ينصت إليك كما تحب، ويفهم معنى كلامك، ويتفهم لماذا أنت تحزن كثيرا وتفرح كثيرا، ولماذا تريد أن تكون وحدك أحيانا ومع الآخرين أحيانا أخرى. ولماذا أنت مختلف، ولماذا أنت تسلك هذه الطريق دون أخرى، ولماذا أنت هكذا .. كما أنت.. ؟؟؟

جميل جدا أن يكون لك أصدقاء، تعيش معهم بحميمية تحدثهم عن أسرارك، عن لحظات جنونك، عن مواطن قوتك وضعفك من دون أن تخجل وتخاف، تثق فيهم وتجد فيهم نفسك عندما تضيع.

أصدقاء، يملأون عليك الحياة، ويجلبون لك الحكايات، وتفرح معهم وبهم، تنام وهم يحرسونك، في الخيال، تستيقظ في اليوم التالي على أمل اللقاء بهم من جديد، وتنتظر المواعيد.

أصدقاء، يقتلون الوحدة والصمت الرهيب، يجلبون لك الملائكة ويدفعون عنك الشياطين، يحملونك على سفن الرحمة إلى شاطئ النجاة وينقذونك من الغرق.

أصدقاء، تسافر معهم على أجنحة من العطر وتتنفس معهم هواء نقيا لتحيا أطول. في لحظة ما، ترفع رأسك، فخورا جدا، تفتح ذراعيك وتصيح أصدقائي.. أصدقائي، يجرون إليك ويطول العناق.. هم الأمان.. هم الأمل.

أصدقاء.. أين هم أصدقائي؟

بعد ثلاثين سنة أفقت بأنه ليس لي أصدقاء. يعترضني الناس بالصدفة، في الشارع أو في المخبزة أو في الكنيسة أو في البنك، يسألونني عن أحوال الطقس، ويشتكون منه إذا كان باردا، ويشتكون منه أيضا إذا كان حارا، يحدثونني عن الأزمة التي مضت ويحذرونني من الأزمة التي ستأتي، وينصرفون وهم يجرون وراء النهار الذي بدأ يمضي ولا تزال على أجنداتهم الكثير من المواعيد مع مشاغل الحياة اليومية.

ثم حتى وإن حدث مرة وحدثت شخصا ما، هل سيفهمك؟ هل سيشعر بك؟ كأنك فقط تروي أحد الخرافات الإفريقية البعيدة جدا، ثم أن العالم لا يريد سماع هذه التفاهات التي أعيشها، هناك مواضيع وأشياء أهم بكثير يجب الحديث فيها، الوقت من ذهب ويجب إفناؤه في مسائل مهمة ومصيرية.

جارتي كلما رأتني خارجا وإلا وجرت باتجاهي وحدثتني عن "باولي"، نعم "باولي" تسرد لي أخباره بكل التفاصيل، الآن هي تعيسة لأن "باولي" مريض، ذهبت به إلى الطبيب ليلا فأعطاه بعض المهدآت، وأخبرها بأن وضعه طبيعي، هو فقط يعيش حالة من العزلة ويعاني من ضغط نفساني يتمظهر في شكل حمى، ونصحها بأن تأخذه في فسحة جبلية قصيرة.

الآن باولي ينام في سلام. قالت، منذ أن دخل بيتي تغيرت حياتي، كنت أشعر بالوحدة، لا أحدث أحدا، لا يستمع لي أحد، أما اليوم فأنا سعيدة مع "باولي"، تتوقف عن الكلام، تتنهد طويلا، وتقول آه.. "باولي..باولي"

"باولي" الآن هو كل حياتها، أخبرتني بأنه يأتي من أفضل سلالة أرانب في العالم. باولي هو الأرنب الذي تحدثني عنه جارتي صباحا مساء من دون ملل والدموع في عينيها حبا له أو خوفا عليه. جارتي لا تترك لي الفرصة أبدا كي أحدثها عن أشياء أخرى.

فجأة تراه في الحديقة، يقفز هنا وهناك... تتركني وحيدا، من دون حتى أن تودعني.. تجري وهي تصيح "باولي.. باولي.."

أمضي أنا إلى نفسي وأقول ماذا لو كنت "باولي" فهل كان سيهتم العالم بي؟

أخرج صباحا باكرا أتمشى كلاجئ إلى الطبيعة، أشتم نسيم عطرها، أستمع إلى أصواتها، حتى الخافتة جدا منها، حتى سقوط الأوراق الصغيرة والخفيفة على الأرض أسمعه وأفهمه، فيبعث دغدغته في أذني، تكوّن موسيقى جميلة، ينشرح لها صدري، كضحكة طفل رضيع بين أحضان أم حنون. حتى أنين الفأر النائم في جحره أسمعه، أو دبيب النمل على الأعواد اليابسة وهو يجر الحبات الصغيرة.

الطبيعة يمكن أن تعوض الأصدقاء الحميمين ولو قليلا، في النهاية تعودت على وحدتي والعالم الذي أعيشه في ذهني، بنيته حجرة حجرة، وجعلت له عاصمة من الأحلام، ليس له خريطة ولا لغة رئيسية. عالم لا يمكن لأحد أن يسمع به أو

بفهمه أو يشعر به، سوى أوراق الأشجار الخفيفة والصغيرة التي تتساقط على الأرض، سوى الفأر الصغير النائم في جحره، سوى النملة الحيلى التي تصارع حبة صغيرة. ربما هو عالم غريب ومعقد لكنني تعودت على ذلك.

وهنا، على حافة النهر، أتحدث طويلا، ولما أغضب، أصرخ عاليا، حتى أستمع إلى صدى صوتي يأتيني من جدران هذه القصور الجميلة والقديمة والخالية.

أنا أعلم جيدا كيف سأنتهي كإنسان في هذا العالم، لكن مشكلتي أنني لا أعلم كيف بدأت بالظبط. عذبني البحث وأتعبتني الأسئلة عن العودة إلى الوطن الذي لم أعد أنتمي إليه، وحيرني وجودي على أرض لم أولد عليها. مرآة للماضي داكنة ومرآة الحاضر ضبابية، أسير باتجاه مستقبلي دون علامات وإشارات رئيسية. أنظر يمينا وشمالا فلا أجد مرآة تعكس صورتي الحقيقة. أتمشى على حافة النيكر، أشاهد الصمت، والصمت يقتلني، أعذبه ويعذبني.. حتى صرنا أصدقاء، حتى صرنا واحدا لا يستغني أحدنا عن الآخر.

أنا أبحث عن ذاك الطفل الصغير الذي تركته بعيدا. الذي هو أنا، أنا الإنسان الموجود الآن أمامك على الأرض وطفولتي بعيدة جدا، أحاول التذكر فتخونني الذاكرة، وأحاول أن أنسى فلا أقدر، أعيش مدا وجزرا، مرة هنا ومرة هناك، ألم الماضي لا يتركني أحلم بسعادة المستقبل. كإنسان له طفل يصعد به إلى أعلى الجبل، لكن الطفل سرعان ما يجري من جديد إلى أسفل، يجري وراءه الأب، خوفا عليه من السقوط و الهلاك، يختصنه من جديد ويحاول الصعود والنحاة مرة أخرى.. لا الأب يقدر على ترك طفله، ولا الطفل قادر على العيش دون أبيه، سيتعذب الأب طول عمره لو يترك طفله وحيدا ويرحل، وسيموت الطفل الصغير لو بقي وحيدا. موت الأب يعني موت الإثنين معا، وتنتهي الحكاية إلى الأبد.. وموت الطفل يعني حياة الأب وحيدا ومعذبا إلى الأبد.

يجري أطفالي نحوي، ويقولون، بابا.. بابا، احك لنا قصة، أقول لهم، تعالوا نلعب أحسن، يقولون لا.. لا .. نريد حكاية من الماضي، حدثنا عن نفسك لما كنت طفلا، هنا يلبسني الصمت، فأصنع الأحاديث والحكايات الإفريقية، الرقص، الأكل، الحيوانات، لكن ماذا سأحدثهم عن نفسي.. لا شيء.. أنا نفسي لا أتذكر.. نسيت.. تناسيت.. جثث القتلى، آلام الرحيل، الجوع، العطش، الضياع، هل ستفيدهم هذه الحكايات؟

لا أريد أن أحدثهم عن تلك الصور والمناظر التي عشتها وشاهدتها، هم ولدوا على أرض أخرى، تنحب أحلاما أخرى وحكايات أخرى، أرض لم أولد عليها، أحاول فقط العيش عليها بلا أسئلة محرجة.

أطفالي هم الخيط الوحيد والقوي الذي يربطني بهذا العالم. بل أبحث عن نفسي في عيونهم. مخيف هذا العالم دون أطفال.

يستيقظ الأطفال باكرا، يلبسون ملابسهم الجديدة، يخرجون صفوفا صفوفا كالطيور الجميلة، رائحتهم فواحة كالملائكة، يرقصون بجانب النيكر ويغنون ويلاحقون الفراشات، يسلمون على الطيور العابرة في السماء، يقطفون عراجين العنب ويلتهمونها، الشمس تطل من بعيد، تشتت السحب التي لم يعد بها أمطار. العجائز يتربعون على العشب الأخضر ويتأملون الأطفال، يبتسمون ويفرحون لأنهم أنجبوا أطفالا لهذا العالم قبل رحيلهم إلى ذاك المكان الذي فيه نور خالد.

مواسم الاحتفال تتوالى وتتعدد ولكل فصل طقوسه الخاصة. أقوم من مكاني أنظر في كل الجهات، أرفع يداي إلى السماء، أقفز عاليا، أدور حول نفسي التي تجذبني إلى الماضي، وأرقص وأحيا يومي، كما هو.. تبا للماضي الذي لا يجلب لي إلا المآسي، أرفع يداي إلى السماء وأرقص، تبا لأيام الشرق الملوثة بالغبار، رحلت ليالي الشرق الجميلة مع شهرزاد وشهريار، ماذا أفعل بالشرق؟ لم يبق منها إلا الغبار يلوث العيون والسماء التي رحلت عنها الأمطار. أرقص وأرفع يداي

إلى السماء، أدور حول نفسي التي تأبى النسيان، تبا للأصل الضائع، ماذا لو كنت فرعون؟ حتما لصرت جثة محنطة في أحد متاحف العالم المتقدم، أو شحاتا تحت الأهرامات، ماذا لو كنت أحد ملوك الحبشة؟ حتما لصرت لاجئا جائعا عطشانا يتسول الخبز والماء والأمان. أرفع يداي إلى السماء وأرقص، وأصيح، ها أنا أحيا، على ضفاف النيكر، رائحة العطر، طعم الخمر اللذيذ، صوت الأطفال، تبا للنيل الذي شاخ وتعب ولم يعد يروي النفوس العطشى ولا الأرض اليابسة التي يعزف عليها اليوم ألحان الخراب والرحيل، أرقص وأرقص، ثم أقطف قارورة نبيذ أحمر وأستحم بها وأدور حول نفسي وأرقص.. أحلم.. أنسى..

يدور الأطفال من حولي يأخذون بأيادي بعضهم البعض ويكونون حلقة دائرية كالزهور، كالملائكة، ويغنون لي أناشيد المواسم الأربعة.

وأنا أدور حول نفسي وأرقص وأحلم حتى أسقط أرضا، جسدي يغوص في التراب والندى والتاريخ، عيناي تنظران باتجاه السماء كميت في قبر يتابع روحه الصاعدة ويتوسل لها حتى تعود. تذهب خمرتي ويذهب معها الدوران وأصحو من جديد فأعلم بأن متعتي كانت جسدية وسعادتي مزيفة. حالة العشق والفرحة التي أعيشها في عالمي الجميل هذا لا تصمد كثيرا، لأنني أبقى لاجئا غريبا لا ينتمي لهذا المكان، لا ينتمي لهذا الجمال.

لا النهر نهري ولا القصور قصوري ولا العنب عنبي، شيء نبت غصبا عنه في هذا المكان كالطحالب التي تأخذها الرياح من مكان إلى مكان تنجب أزهارا برية لا تصلح لزينة الحدائق ولا الشرفات، يقتلعونها من جذورها حتى لا تنبت من جديد ويرمون بها في الزبالة لأنها بلا اسم، بلا رائحة، بلا أصل.

العنب لذيذ لكنني أشتاق إلى التمر غصبا عني، حقول العنب وعراجينها رائعة، وواحات النخيل تناطح السحب وشامخة لا تخشى السقوط، العنب يفرض نفسه عليك كامرأة عاهرة تقطفها بحثا وبسهولة، أما عراجين التمور فتتمنع كإمرأة شريفة وطاهرة، يجب أن تصعد إليها وتكافح كي تظفر بعسلها بين شفتيك.

على ضفاف النيل كنت أرى نفسي قديما جدا واليوم على ضفاف النيكر أرى نفسي نظيفا جدا. هناك أشعر بأنني عشت كثيرا وهنا أشعر بأنني سأعيش أكثر.

لو رأيت جملا إفريقيا على ضفاف النيكر، يسير رويدا رويدا من غونلدسهايم إلى هيدلبارغ كالقطار الأحمر السريع، أتراه سيزيد من جمال المكان أم سيشوهه؟ أليس هذا بمنظر طبيعي شاذ؟ هل سيتلذذ الجمل العطشان بمياه النيكر الكثيرة؟

لا أتصور ذلك، سيظل المسكين على عطشه حتى يعود إلى صحرائه الجافة ومربضه المغبر، ثم يبدأ في البحث عن قطرة ماء لها طعمها الخاص، يسير من أجلها أياما ويصلي من أجلها ليالي. لا أظن بأن الجمل سيكون سعيدا جدا بكثرة المياه، لأنه تعود على العطش. العطش هو جزء من حياته اليومية، بل هو موجود ليحوب الصحاري بحثا عن قطرة ماء، كثرة الماء ربما تعني نهاية الجمل.

لما كنت في إفريقيا لم يكن يعنيني الأصل أبدا، لأنني كنت دائم البحث عن الأكل والماء كالجمل، أما اليوم، وبعد أن شبعت وأرتويت وأنتفخ بطني بالخمرة البيضاء، أصبحت أبحث عن هذا الأصل الذي هو سبب هروبي وتشريدي.

ها أنا أغمس يداي وأنفي في مزابل التاريخ.. في درج الماضي النتنة، بحثا عن دليل واحد يحملني إلى نفسي ومرآة صافية أنظر فيها لما أضيع.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com